الطبعة الثانية

ليلة واحدة في دبي

رواية

دار الساقي

منذ البارحة فقط، نبتت عمارة بجوار نافذتها ترتفع إلى السماء. في ليلة واحدة أصبحت مئة طابق وما زالت تشقّ طريقها للأعلى. لقد حجبت العمارة ضوء الشمس عن حجرة نومها. أحست بالخوف وأخذت تسأل: أين أنا؟ ثم ما لبث أن ضاع اسمها، نسيته فراحت تبحث عمن يعرفها كي يذكّرها به من دون أن توحي أنها نسيته.

هي جاءت إلى دبي لتبدأ حياة جديدة بعد زواج دام شهرين. توظفت في شركة كبيرة وتفوّقت في إدارة العلاقات العامّة. لكنّها لم تشعر بالاستقرار والطمأنينة مع وحدة كانت تكبر كل يوم في داخلها. فذكرى حبيبها الذي التقته عقب الطلاق وتخلّى عنها، لا تزال تطاردها.

ورغم نجاحها في العمل، بقيت رهينة الحيرة والوحدة والضياع في مدينة جامحة، الى أن فتحت قلبها وحكت كل شيء للحارس الهندي...

هاني نقشبندي كاتب وصحافي سعودي. صدرت له عن دار الساقي روايتا «اختلاس» و«سلام».





DAR AL SAQI
دار الساقي

الطبعة الأولى ٢٠١٠
الطبعة الثانية ٢٠١٠

ISBN 978-1-85516-632-5

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص. ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٣ - ٢٠٣٢
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ (٠١)
e-mail: info@daralsaqi.com

دبي هي نيويورك
... وهي دلهي
هي باريس
... وهي القاهرة
هي الرياض وبيروت
دبي هي أنا، وهي أنت
دبي هي كما تريد أن تراها
... كما تريد أن تراها

المؤلف

اسمع الصوت في داخلك

أفتاب

أربع وعشرون ساعة

عندما فتحت عينيها بتثاقل، متدثّرة بلحافها الزاهي الكبير، نظرت إلى ساعة المنبّه، فرأتها تشير إلى الثامنة صباحاً. استدارت تجاه النافذة تبحث عن ضوء الشمس الذي اعتاد أن يدخل من شق الستارة في هذا الوقت. كان الضوء شحيحاً، وقدّرت أن الساعة مخطئة، إنها ليست الثامنة، بل الرابعة فجراً أو الخامسة على الأكثر.

التقطت ساعة المنبّه من فوق الكومدينو ودفنتها تحت مخدّتها وأغمضت عينيها من جديد. بعد دقائق، فتحتهما وعادت تنظر إليها متشككة. مدت يدها إلى الكومدينو مرة أخرى تلتقط ساعة معصمها. قرّبتها من عينيها شبه المغمضتين. إنها الثامنة بالفعل. الساعة الكبيرة لم تكن مخطئة إذاً، لكن «أين هو ضوء الشمس؟» تساءلت وهي تنهض بنصف جسمها تنظر إلى الساعتين، ثم إلى الستائر حيث يتسلل قدر خجول من الضوء. اندهشت وفكرت «لا بد أن شيئاً قد حدث إمّا للساعتين وإمّا للنافذة وإمّا للشمس». الاحتمال الآخر أنها ما تزال نائمة تحلم.

دفنت نفسها تحت اللحاف الكبير، لكنها أحسّت، على نحو ما، أنه وقت استيقاظها. استوت جالسة وبسطت ذراعيها على امتدادهما. دفعت شعرها إلى الوراء وسمّرت نظرها على النافذة للحظات. ثم نظرت إلى الدبّ الأحمر الصغير بجوارها، والذي يشاركها كل ليلة في سريرها. وبقميص نومها الذي يكشف فخذيها حتى موطن أنوثتها نهضت إلى الحمّام. غسلت وجهها وأسنانها، وشرعت تفكّر في ما ستفعله في يوم عطلتها. ستشرب القهوة أولاً، وتتناول إفطاراً خفيفاً، وتعيد ترتيب بعض أوراقها، ثم... «لكن أين اختفى ضوء الشمس؟».

ربطت شعرها الفاحم الطويل بحلقة مطاطية، ومضت باتجاه النافذة التي لا تبعد عن سريرها أكثر من ثلاث خطوات. كانت حجرة نومها لا تزيد على ثلاثة أمتار طولاً ومثلها عرضاً. وإنْ حسبت مساحة خزانة الثياب المكتظة حتى التخمة، والسرير النصف كبير، فبالكاد يبقى هامش للمشي هو أشبه بمناورة حقيقية.

جمدت مكانها في لحظة دونما سبب محدد. وبدلاً من أن تزيح الستائر عن النافذة، وقفت تنظر إلى غطاء سريرها ذي اللون الزهري تزيّنه بقع بيضاء وزرقاء تشبه ملابس داخلية لمراهقة.

فكرت وهي تقف أمام سريرها، في أن لا تفتح الستارة. شيء ما أهابها للحظة وحيّرها، كما لو خلف الستارة يكمن مصيرها كله.

بدت صورتها بثوب نومها القصير، مع ضوء الغرفة

الشحيح، كلوحة زيتية لامرأة شبه مكتنزة متوسّطة الجمال، فمٌ صغير يحاول أن يبتسم، عينان عسليتان، صغيرتان ومجهدتان، أنف عادي، وشعر فاحم طويل ينسدل وراء الحلقة المطاطية كذيل حصان لم يشذّب.

بقيت واقفة في هيئتها تلك قبل أن تضع الدبّ الأحمر في حضنها تلتمس الأمان بوجوده كرجل صغير، ومضت إلى النافذة تزيح الستائر عنها. فتحت النصف الأيمن، وقبل أن تفتح النصف الآخر، كانت صرختها قد سبقت سقوط رَجُلها الأحمر الصغير على الأرض. تراجعت خطوتين وتهالكت على سريرها ويدها تكتم شبه صرخة.

لم تصدّق ما رأته.

لا بد أنها تحلم. نعم، إنها تحلم. لا.. إنه ليس حلماً بل كابوس. أطبقت وجهها بيديها وهي تلهث فزعاً، وبهدوء رفعت رأسها ونظرت إلى مرآة كبيرة تحتلّ نصف حائط حجرتها. بدت شاحبة الوجه مرتبكة. «من أجل ذلك اختفت الشمس إذاً».

«آه.. آه.. لا يمكن» وعادت تطبق على وجهها وهي تحرّك رأسها يميناً ويساراً.

بتردد قامت من جديد، وتقدّمت خطوتين باتجاه الستارة تعيد النظر لتتأكد أن ما رأته كان صحيحاً، وأنها ليست تحلم. بدا شكلها طفولياً وهي تمدّ رقبتها لترى ما وراء النافذة قبل أن تسري فيها رعشة خفيفة. فتحت النصف الآخر من الستارة، ثم قبضت بيديها على منتصف كل نصف تبعدهما وتنظر لتتأكد أن ما تراه صحيح.

بقيت صامتة جامدة كصنم حجري. كانت لمعة عينيها على زجاج النافذة هي كل ما يشي بالحياة. وكي تتأكد أن نظرها لا يخونها، طالعت المعالم التي تعرفها خارج نافذتها وتحديداً في الأسفل، قُبالة الباب الرئيسي للعمارة التي تسكن فيها. أمام قطعة الأرض الكبيرة، قطعة الأرض الفضاء الكبيرة المواجهة لعمارتها. المواجهة لموقف سيارتها. سيارتها التي أوقفتها بالأمس أمام هذه الأرض الفضاء قبل منتصف الليل. هي وسيارتها والأرض الفضاء الكبيرة. إنها السبب. إنها هذه الأرض التي منعت أشعة الشمس من الدخول. فما عادت فضاء، بل عمارة يتخطّى ارتفاعها المائة طابق. رفعت رأسها للأعلى فكان البناء لا يزال يصعد إلى السماء. كانت العمارة في طوابقها السفلى قد لبست ألواحاً زجاجية خضراء، فبدت كشجرة ضخمة، أو مسخاً أخضر اللون. ورغم أنها بدت جاهزة للسكنى في هذا الجزء تحديداً، فقد كانت سقالات البناء الحديدية الضخمة تزيّن رأسها كأشواك المسيح المصلوب.

واحد، اثنان، ثلاثة، عشرة، عشرون، خمسة وثلاثون، ستون، وتوقّفت عن العدّ وأحسّت بألم في رقبتها وهي تمدّها للأمام والأعلى من وراء زجاج نافذتها.

منذ البارحة فقط حتى الآن، نبتت عمارة بجوارها ترتفع إلى السماء. في ليلة واحدة أصبحت مائة طابق وما زالت تشقّ طريقها للأعلى. لقد حجبت العمارة ضوء الشمس عن حجرة نومها. هكذا.. خلال ساعات، في ليلة واحدة فقط، كتب على الشمس أن لا تزور الحجرة بعد اليوم.

عادت خطوتين إلى الوراء، وجلست على طرف السرير. تحسّست بعض الخطوط على رقبتها، مسحت عليها بيدها اليمنى، ورفعت رأسها إلى الأعلى تنظر إلى السقف بعينين زائغتين.

تغلّبت على ارتباكها وقامت باتجاه النافذة تنظر إلى العمارة الخضراء من جديد. فتحت مصراعَي النافذة ومدّت جسدها إلى الخارج، وأدارت رأسها في كل اتجاه. بدت تبحث عن شيء يربطها بالمكان. أيّ شيء يجعل من المسخ الأخضر أمامها هلوسات صباحية لا أكثر.

في البعيد، رأت بعض أبراج شارع الشيخ زايد. نظرت إلى ما هو الأعلى من تلك الأبراج لتحدد أن المكان الذي تقف فيه هو شقّتها بالفعل، وأن ما تراه أمامها ليس هلوسة امرأة تسكن وحيدة.

نظرت إلى اليمين فميّزت العمارة البيضاء القديمة المجاورة لها. القديمة بعمر عامين. يكسوها من أعلاها لأسفلها زجاج برّاق كثوب عروس. على حوافها أضواء تومض بقوة. إنها تعرف هذه العمارة القريبة من الأرض الفضاء التي ما عادت فضاء. إلى اليسار ميّزت عمارة أخرى انتهت إنشاءاتها منذ أشهر قليلة. جميلة وأنيقة، ذات شرفات واسعة تزيّن أطرافها تشكيلات حديدية بديعة.

العمارتان، البيضاء القديمة التي مضى على إنشائها عامان، والأخرى إلى اليسار، شاهدتان مثلها على أن العمارة الخضراء ليست وهماً، وأنها قد نبتت في ليلة واحدة على الأرض التي كانت حتى الأمس فضاء.

بهدوء وذهن شارد، أغلقت النافذة بعد أن لفحتها نسمة

صباحية باردة. نظرت إلى حجرة نومها، إلى السقف، الأرضية، الستائر، المرآة الكبيرة. إنها في حجرتها الصغيرة، في شقتها الصغيرة، التي ما عادت الشمس تدخلها.

****

هي في الثلاثين من عمرها. جمالها متوسّطي وقامتها وسط، لا تكفّ عن إلصاق السيجارة بشفتيها. ليست حادّة الطباع، لكن الانتظار يزعجها، وصبرها يحتاج إلى دعم إلهي. ولعلّها قد ورثت عجالة الأمور خلال سنواتها الأربع في دُبي، المدينة التي لا تنتظر أحداً. وفي صورة متناقضة هي مرتبة التفكير حيناً أو مرتبكة، حاسمة أو مترددة، عطوفة أو قاسية حسب الظرف الذي تكون فيه. إنها تبدو باختصار، إنْ قورنت بالأبراج النسائية، خليطاً من كل برج، لكن أيّاً منها لا يشبه البرج العملاق الذي نبت خارج نافذتها.

تفكر كثيراً في الذي مضى، ولا تنشغل بما سيأتي. هو نوع من اللامبالاة فرضته تجربتان مؤلمتان دفعتاها إلى ترك كل شيء للقدر. وإنْ كان من طموح تتمنّى تحقيقه فليس أكثر مما لدى أي فتاة في تأسيس عائلة والاحتفاظ بوظيفة تأمن بها غدر الرجل إن وقع. وبالنسبة إلى عملها فهي تعتبر محظوظة مقارنة بكثيرات، حيث تدرجت سريعاً من وسيطة عقارية في شركة كبرى إلى مسؤولة عن العلاقات العامة. ومع أن راتبها الشهريّ يصل إلى أربعة عشر ألف درهم، وبعض العمولات، فهو ليس بالمبلغ الكبير في مدينة أغلى من لندن وباريس، وقد دفعها ذلك إلى أن تدير حياتها بشكل روتيني شبه منظّم. فنصف معاشها يذهب إلى

كراء شقتها الصغيرة، ونصفه الآخر تجهز به مستلزمات امرأة لا تحبّ البذخ ولا التقتير في ثيابها ومكياجها. مع ذلك يمكن القول إنها تتمتّع بقدر من الأناقة، مع جاذبية تزيدها لمسات مكياج ناعم وخفيف. علاقتها بزملائها شبه رسمية، وإن التقتهم في مناسبات مختلفة. أما الأصدقاء فكل ما لها صديقتان غادرت إحداهن إلى فرنسا قبل عامين، وانشغلت الأخرى برضيع رزقت به منذ ثلاثة أشهر.

لم يكن اختلاطها بأناس مختلفي المشارب والجنسيات يزعجها بادئ الأمر، بل رأت فيه وسيلة لملء فراغ حياتها، إلاّ أنها اكتشفت فيما بعد أن كثرة اختلاطها بالعملاء أفقدها رقّة الأنثى في سوق سريع الإيقاع، يتحوّل الناس معه إلى أجهزة صرف آلية لا مجال للمشاعر فيها. وكثيراً ما وجدت نفسها تتحوّل إلى أنثى رقمية، همّها تأمين مبلغ يكفي حاجتها، ويؤمّن لها شراء دار صغيرة في وطنها عندما تعود إليه.

إنْ بقي شيء يميّز حياتها التي تقضي معظمها بين عملها ومنزلها، فهو انصرافها إلى قراءة بعض كتب الإدارة والتسويق وضبط الشخصية، وهي عادة استبدلت بها إرثاً قديماً من الروايات الرومانسية الحالمة مذ كانت صغيرة.

ما الذي كانت تبحث عنه في بطن تلك الكتب؟

سألت نفسها ذات يوم، ولم تعثرعلى إجابة مقنعة. أقصى ما وصلت إليه هو رغبتها في تصوّر نفسها تحلّق مع الأقوياء الذين يعكسون شخصية هي بعكسها. إنّه إحساس بالضعف وعدم الثقة بنفسها وبالآخرين. أحياناً كانت تعتقد أنها ستجد طريقاً يهديها

بين الكتب. لكنها كانت تهزأ من فكر كهذا مع كثرة من حولها من أناس لا تربطهم بالكلمة أدنى علاقة. وقد علمت منذ اليوم الأول لها في دبي، أن تلك هي السمة الثانية التي تكتشفها في المدينة، الأولى أن الصداقات فيها نادرة وقصيرة، والثانية أن الكتب توجد في المكان الخطأ.

في صالون منزلها، وهو ليس أكبر من حجرة نومها كثيراً، كانت ثياب سهرة البارحة، في أحد مطاعم المدينة، ملقاة بإهمال على الأريكة الوحيدة التي يمكن أن تتحمّلها الصالة. كانوا أكثر من عشرة أصدقاء. معظمهم زملاء يربط بينهم عمل واحد. إنهم أصدقاء لا تختارهم الإرادة الحرّة.

جالت بنظرها على حوائجها ثم على حيطان صالونها، التي بدت كلّها بلون واحد حتى السقف. وبشكل ما أحسّت أنها تكتشف تفاصيل جديدة في دارها لم ترها من قبل، وبدت لها الحجرة كقطعة ثلج مكعّبة.

تنفتح الصالة على مطبخ صغير، يفصل بينهما حاجز يشبه المشرب، على سطحه الرخامي طبق فيه بضع تفاحات وقطعتا موز تشبه إحداهما خنجراً يمنياً معقوفاً علاه صدأ ضارب إلى السواد. جلست تنظر حولها. تخيّلت نفسها تسكن في أحد بيوت اللعب الصغيرة التي كان يشتريها لها والدها. بالأمس بدت عملاقة أمام هذه اللعب. اليوم ترى نفسها قزمة تسكن داخلها.

أشعلت سيجارة وبدأت تنفخ الدخان بتوتّر ظاهر. ومع أنها اعتادت الصباحات النشطة، إلا أن رؤية العمارة الخضراء أدخلت إلى نفسها توتّراً أيقظ شيئاً داخلها. شيء جعلها ترتعش. نهضت

إلى المطبخ وأعدّت فنجان قهوتها الصباحية وعادت إلى مكانها تدخن سيجارتها. بدت شخصيتها باهتة كلون حيطان منزلها. بدت، في جلستها تلك، ملولة ومملّة.

صلبت ساقيها، وسحبت خصلة من شعرها راحت تعبث بها بين عينيها.

لسعتها سيجارتها التي قضت، والعمارة التي نهضت بقدرة إعجازية في ليلة واحدة لا تفارق مخيّلتها. كانت أسئلة كثيرة تراودها «كيف نشأت في ليلة واحدة؟ هل هو سحر؟ أيّ شركة بناء تستطيع أن تفعل ذلك؟ لا، لا، إنّه حلم ولا شك» .

أشعلت سيجارة جديدة وألقت بالعلبة على طاولتها الأرجوانية التي تناثرت فوقها قطع صغيرة على هيئة جنود ودمى من الخزف الملوّن. اقتناء هذه القطع هواية مارستها منذ زمن حتى باتت لديها مجموعة تفترش المساحات الصغيرة المتاحة في منزلها. هذه كلها هي اليوم أهلها في غربتها. ودون أن تحصي عددها تمتمت «واحد وأربعون». وقد كان العدد كذلك بالفعل، ما أثار حيرتها، إذ كيف استطاعت تذكّر ما جمعته طوال أعوام، وهي التي اشتهرت بذاكرة من غبار. ومن الدمى الصغيرة على طاولتها، عادت تفكّر في العمارة الخضراء متسائلة إن كانت قد رأتها تُبنى من قبل دون أن تنتبه لها وسط هرولات ذهابها وإيابها. «ربما بدأوا البناء قبل أشهر، أو حتى أسابيع» وسألت نفسها «متى نظرت من نافذتي آخر مرة؟» تمتمت وتذكّرت أنها منذ أيام، بل منذ أحد عشر يوماً تحديداً لم تقترب من نافذة حجرتها. لكنها وهي تفكر في ذلك استغربت

للمرة الثانية كيف أمكنها أن تحدّد أحد عشر يوماً بدّقة. وبالمثل تذكّرت أنها بالأمس، بالأمس فقط، رأت الأرض الفضاء غارقة في فضائها.

بتأفف نهضت وهي تحرّك بيديها الهواء أمام وجهها كمن يشتّت غباراً. بحثت عن هاتفها وطلبت رقم سولين، العامل الهندي في السوبرماركت أسفل البناية. أرادت أن يحضر لها خبزاً وزجاجة حليب كما اعتادت أن تفعل. اعتمادها على دفتر تلفوناتها كان أساسياً. لكنها فوجئت بنفسها تطلب الرقم بالاعتماد على ذاكرتها وحدها كما لو هي معتادة الاتصال بالرقم ذاته عشر مرات في اليوم.

عندما أجابها العامل على الطرف الآخر قالت: أنا... أنا وصمتت لحظة قبل أن تغلق الهاتف. وضعت يدها على فمها في ذهول. انتظرت لحظات قليلة قبل أن تعاود بيد مرتعشة الاتصال بالرقم ذاته. جاءها صوت سولين على الطرف الآخر. قالت بصوت متكسّر: «أنا.. أنا.. هذه شقّة ١٧» وطلبت منه ما أرادت.

«حاضر مدام» قالها عامل السوبرماكت وأقفل الهاتف.

للحظة وقفت تفكّر في أنا. من هي أنا هذه؟ ولماذا لم تخبره باسمها؟

****

كاد النهار ينتصف وهي تتنقل بين صالونها الصغير وحجرة نومها، تنظّف هنا وترتّب هناك. حمدت الله أنه يوم عطلتها الأسبوعية، فما كانت في وضع يسمح لها برؤية أحد وسط فوضى تحتاج إلى يوم كامل للانتهاء منها.

ألهاها عملها المنزلي عن العمارة المجاورة، وإنْ بقي في داخلها شيء من ارتباك، فلم تفارقها حيرة البحث عن السبب الذي دفعها إلى إخفاء اسمها عن عامل السوبرماركت.

بعد أن بدت شقّتها أكثر إنسانية وقفت قبالة النافذة تنظر إلى العمارة الخضراء. ومع أنها المرة الرابعة التي تراها ذلك الصباح، فقد سرت في أوصالها الرعشة الخفيفة ذاتها. أخذت تتأمل في تفاصيل ما أسعفتها المفاجأة في اكتشافها. نظرت إلى قاعدتها العريضة المكسوة بالزجاج الأخضر، رأت المدخل الكبير الذي يقود إلى قلبها، وقد بدا جاهزاً لاستقبال الساكنين لولا سقالات القمّة التي لا تزال تواصل الصعود. لم تكن هناك شرفات، ولا رأت نوافذ، بل مجرد زجاج أخضر يطارد البناء الصاعد إلى أعلى.

استطاعت إلى حدّ ما أن تقدر أبعاد حجرات الشقق التي لم يغطها الزجاج بعد. قدّرت أنها ربما بحجم الشقة نفسها التي تسكن فيها. لكنها لم تلبث بعد أن نظرت داخل حجرتها، أن اكتشفت كم هي كبيرة مقارنة بحجرات العمارة المقابلة، وكم هي هذه وتلك صغيرتان أمام حجم الغرف في عمارتها التي عاشت بها في وطنها، متذكّرة على نحو مذهل عدد طوابقها وشققها وأسماء الجيران القدامى والجدد الذين سكنوها.

استحمّت قبل الواحدة بقليل، ولبست ثياباً منزلية خفيفة وجلست قبالة التلفزيون الذي قلما تابعت برامجه بشكل منتظم. طالعت مسلسلاً تركياً مدبلجاً، لكن بدا أنها بعيدة عنه. فقد انسلّ إلى ذهنها السؤال ذاته: لماذا لم تخبر عامل السوبرماركت باسمها عندما طلبت الخبز والحليب؟ ما الذي أخافها في

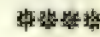
الإفصاح عن اسمها؟ وبشكل عبثي، أقحمها سؤالها في لجّة سؤالها الأول «كيف نبتت العمارة في ليلة واحدة؟»

أعياها البحث عن رابط بين السؤالين إلى أن برقت عيناها بلمعة غامضة وشيء من ذعر. هي لم تخف اسمها على أحد. هي بكل بساطة لم تتذكّر الاسم.

وضعت رأسها بين كفيها وانحنت على ركبتيها حتى لامستهما كمن تتلوّى من ألم في بطنها. رفعت رأسها ونظرت إلى السقف لا تعرف أتبكي أم تضحك. بعد ثوانٍ وجدت نفسها تفعل الأمرين «لقد نسيت اسمي.. نسيته».

لم تسعفها نصف ساعة من التفكير في تذكّر اسمها. خالت نفسها فقدت بعضاً من ذاكرتها، لكن هذه الأخيرة كانت تعمل باجتهاد لا شكّ فيه. فقد تذكّرت أسماء وأرقاماً ما كان لها أن تتذكّرها بعد طول غياب، ومن باب التأكّد حاولت استرجاع بعض صور البارحة، والزملاء الذين رأتهم خلال العشاء. تذكّرت جميع أسمائهم. عادت إلى الوراء أكثر، واسترجعت صور الأسبوع الذي مضى وما حدث فيه. تذكّرت العميل الذي لم يكفّ عن مغازلتها، والزميل الذي أهدى إليها كتاباً بعنوان «المياه بلون الغرق». تذكّرت اسم الكاتب وعدد صفحات الكتاب. عادت إلى الوراء أكثر، فتذكّرت ما الذي حدث معها الشهر الماضي، ونسبة العمولات التي حصلت عليها، ومقدار فاتورة هاتفها التي تأخّرت في سدادها، وعدد المرّات التي اتصلت بها والدتها. «آآآآآآه..» صرخت وشريط ذكريات قديمة يعود إلى رأسها كما لو أن كل الماضي البعيد حدث معها بالأمس فقط، ونظرت من حيث هي إلى

العمارة الخضراء بجوار نافذتها. هبّت واقفة تبحث عن هاتفها الجوال، فقد خطر لها أن الجواب يكمن فيه.



بيدين مرتعشتين أخذت تبحث عن تاريخ اليوم في هاتفها. ومع أنها تذكره هو الآخر بشكل جيّد، تمنّت لو كان مختلفاً. فقد قدّرت استحالة أن تكون قد نامت بالأمس فقط أمام قطعة أرض فضاء لتجد عليها في اليوم التالي عمارة ترتفع أكثر من مائة طابق. ربّما نامت لفترة طويلة. ربما لأيام أو عدة أسابيع، لكنها تساءلت «كم يوماً يلزمها نائمة حتى تظهر عمارة بهذا الارتفاع؟»

ألقت بالهاتف بعيداً وسارت ببطء تجاه النافذة. نظرت إلى العمارة الخضراء، ومن جديد أخذت تعد الطوابق. واحد، أربعة، عشرة، عشرون، خمسون... «يا إلهي» أطلقتها صرخة خفيفة «لقد زادت العمارة ارتفاعاً» قالت وهي تضع يداً على فمها. منذ ساعة فقط، زادت العمارة تسلقاً إلى السماء. «كم طابقاً ارتفعت؟» تساءلت وعادت تنظر إلى قمة العمارة. حتى الحجرات التي كانت مكشوفة منذ قليل كُسيت بالزجاج الأخضر.

نظرت حولها، ثم إلى المباني البعيدة وراء العمارة الخضراء كي تتأكّد مرة أخرى، أنها في شقّتها وسط دبي.

أحسّت للحظة بفقدانها القدرة على التفكير، فتراخت على سريرها وهي تضع يدها على رأسها كمن تشكو صداعاً. أحسّت أن الفضاء من حولها يتمايل كراقصة غجرية. بقيت تنظر إلى النافذة، وفكّرت أنها لو اقتربت منها الآن، لربما أضيف للعمارة الجديدة طابق آخر.

تأمّلت نفسها في مرآتها الكبيرة، وقدّرت أن اسمها الذي فقدته له علاقة ما بتلك العمارة. نهضت كثملة، ونظرت تائهة إلى نفسها. بعد لحظة صمت ووقفة تشبه التأبين، ولّت مهرولة باتجاه صالونها كمن تهرب من كابوس يطاردها في منام مزعج.

هدأت من روعها وهي تنظر إلى حلقات من الدخان المتصاعد من سيجارة أشعلتها. حاولت أن تفكر في لا شيء وعجزت. انتفضت على رنّة من هاتفها الجوّال. بقيت تتأمّل اهتزازاته وهو ملقىً على طرف الأريكة دون أن تجيب. بعد أن صمت التقطته.

كان اتصالاً دولياً على ما بدا لها، فقد أتى بلا أرقام. للحظة تمنّت لو أنها ردّت فلربما كان الاتصال مهماً، ولعلّه يذكّرها بما نسيته.

وبدلاً من أن تسترخي، أو تتذكّر شيئاً، بدأ عقلها يعمل في اتجاه ذكريات أخرى مسترجعاً تفاصيل مذهلة لأصدقاء قدامى وأماكن بعيدة. عندما حاولت أن تجذب هذا النشاط إلى شيء يتصل باسمها عجزت للمرة الثالثة. وعوضاً عن ذلك، أخذت تتذكّر أشياء لا حاجة لها بها، كأرقام سيارتها وتاريخ شرائها، وأرقام هاتفين كانا معها تخلّت عن أحدهما. تذكرت مواعيد الأسبوع القادم كله، والعملاء الذين ستلتقيهم. حاصرت ذاكرتها بالماضي والمستقبل، لكن الحاضر الممسك باسمها، واسمها الأول وحده، ظلّ عصيّاً على الذاكرة.

توقّفت عن التفكير وتمدّدت على الأريكة. فكّرت أن أفضل وسيلة لاستحضار ما غاب أن تتجاهله. اعتدلت وشغلت نفسها

في النصف ساعة التالية بتقليب الدمى الصغيرة وتنظيفها وإعادة ترتيبها كما لو كانت جنوداً سيخوضون معركة، ومرّة أخرى خسرت معركتها.

عصرت رأسها بين يديها، وأخذت تردّد أسماء كثيرة بصوت خافت وهي تنظر إلى قدميها: سامية، سلوى، سعاد.. «لا.. لا شيء من ذلك»، لكنها لاحظت أن حرف السين يتكرر، لا بد أنه حرف في اسمها إذاً.

عادت تدندن أسماء أخرى، رانية، رويدا، رحاب «لا.. لا.. ليس أي واحد منها» قالت في ضجر بعد أن لاحظت أيضاً أن حرف الراء يتكرّر.. إن جمعت الحرفين المتكررين في الأولى والثانية فأقرب الأسماء يكون سارة، لكنه ليس كذلك، أو هذا ما شعرت به على الأقل. وللحظة قدرت أنها قد أبحرت بعيداً عن اسمها الحقيقي. هكذا وجدت نفسها وهي تحملق في ساعة حائطية سوداء فوق التلفزيون تعيد من جديد ترداد كل ما خطر لها من أسماء أنثوية. ثم خطر لها أن اسمها قد يحمل مسحة ذكورية ما، فأخذت تدندن بتمهل أسماء مشتركة للرجال والنساء «شمس، قمر، نور، رجاء»، ثم انطلقت في تتابع سريع «عفّت، عفاف، علي، محمد، أحمد.. ااااااااااه... صرخت بقوة مفرغة ما في صدرها من هواء، غطّت وجهها براحتَي يديها، «غبيّة.. غبيّة» قالت في حنق وهي تشدّ على يديها المقبوضتين كملاكم يتأهّب للقتال، «آه...» وأخذ جسدها يرتعش.

****

اقتربت من نافذة حجرتها. تعلّقت على طرفَي الستارة حتى

كادت تسقطها. ثم عادت إلى الوراء قليلاً ونظرت إلى مرآتها، فبدت هالة سوداء رقيقة تحيط بعينيها لم تكن موجودة هذا الصباح.

في الحمّام غسلت وجهها عدّة مرّات، ثم اتكأت على حافتي المغسلة لحظات تحدّق في المرآة وتتفحّص الهالة عن قرب، وسألت نفسها «هل كبرت في ليلة واحدة حتى أنسى اسمي؟». اقتربت من المرآة وأخذت تبحث بين خصلات شعرها عن واحدة بيضاء.

وضعت رداءً خفيفاً على جسمها يقيها قشعريرة برد خفيفة، وانصرفت إلى خزانة ثيابها ترتّب بعض ما فيها. كانت، بين لحظة وأخرى، تسترق النظر إلى العمارة الآخذة في الصعود، والعمّال الذين يبدون في الأعلى كدمى تتحرك. «ألا يرتاحون يوم عطلة؟» فكّرت. نعم، إنه يوم عطلة «فلمَ لا أمضي إلى البحر؟» داخلها شعور في تلك اللحظة بأن اسمها قد غاص عميقاً في تجاويف عقلها، وعليها أن تغوص وراءه تبحث عنه، والبحر سيساعدها. لبست مايوه أبيض تزيّنه وردة بألوان الربيع على أحد جوانبه، لبست فوقه سروالاً قصيراً من الجينز مع بلوزة فضفاضة بلون السماء. ومع الساعة الثانية بعد الظهر كانت قد غادرت شقّتها.

في مدخل البناية وجدت ساكنة روسية تتجادل بصوت عال مع أحد حرّاس البناية، وهو هندي الجنسية. لم تكن السيّدة تحسن الإنكليزية ولا الحارس يفهمها. «لو تحدّث كل بلغته لربما تفاهما أكثر»، قالت في نفسها وغادرت بسرعة.

أدارت محرّك سيّارتها البيضاء التي اشترتها العام الماضي، وهي رباعية الدفع كمعظم ما تقود النساء في دبي. في سيارتها هذه توجد شقة نسائية أخرى. حقيبة هنا، ماكياج هناك، فردتا حذاء وبعض الثياب.

قبل أن تنطلق بسيارتها إلى البحر، وجدت نفسها تحملق في العمارة العملاقة. من هنا، من الأسفل رأتها بصورة تختلف عنها من الأعلى. بانت لها ككتل مربعة تتسلق واحدة على ظهر الأخرى بحجم يصغر كلما صعد إلى الأعلى، تتقاطع على زجاجها الأخضر عوارض فضية براقة تحيط بأدوارها السفلى. ومن حيث تقف تناهت إلى سمعها أصوات معدات وطرقات تعمل في القمة.

انطلقت على عجل باتجاه شارع جميرا، حيث شاطئ السباحة المفتوح. كانت الطرقات شبه خالية في هذا الوقت من السبت، فلم تستغرق رحلتها أكثر من ربع ساعة، قضتها تفكّر في اسمها الذي اختفى، والعمارة التي نبتت في ليلة واحدة، متسائلة عمّا يربط بين الاثنين. وقد كان أقصى ما وصلت إليه هو أن الإحساس بالتقزّم أمام العمارة الخضراء العملاقة زاد من إحساسها بالخوف، وأعاد إليها شعور الوحدة، الذي حاولت أن تتجاهله عاجزة بشكل مطلق عن أن تنساه. وقد فسّر لها الخوف سبب ضياع اسمها في مدينة لا تنفكّ تتغيّر كل يوم، حتى لتبدو كل صباح مختلفة كليةً عن الذي سبقه. وهذا في حد ذاته سبب كافٍ لأي إنسان كي يسأل نفسه أين هو ومن يكون؟

عندما وصلت إلى البحر، بقيت في سيارتها لدقائق تتأمّل

السماء الصافية. بدا أنها في حاجة إلى فضاء يحميها من أسر العمارة الخضراء. ترجّلت ومضت باتجاه الشاطئ. فردت منشفة كبيرة وتمدّدت بملابس البحر. نظرت حولها إلى الامتداد الرملي الطويل. كان الشاطئ نصف ممتلئ. لو أتت بالأمس لوجدته عامراً بالناس من كل الجنسيّات في استعراض حقيقي للمايوهات ولملابس رجالية داخلية لعشرات الهنود والسريلانكيين. كان منظرهم يزعجها رغم رحابة المكان الذي يعطي الزائر انطباعاً بأنه في هاواي أو سيشيل. قارئة في ملامح الوجوه والأيادي المتشابكة لرجال ونساء، والأجساد المنشورة تحت صفحة الشمس على الرمال البيضاء، فكرت كيف هو الرجل يحب المرأة الأفقية، المتمدّدة أمامه في استكانة، أكثر منها العمودية الواقفة قبالته. الحب لديه جنس، والجنس لديها حب. نظرت إلى الفضاء اللامتناهي يحيط بها. شيء واحد تمنّته تلك اللحظة أكثر من أي وقت مضى... لو لم تكن وحدها.

نزلت إلى الماء فأحسّت به فاتراً ومنعشاً. خمس خطوات إلى الأمام، ومثلها إلى الوراء ثم عادت إلى مكانها. دهنت جسدها بزيت خاص وأخذت تقرأ في كتاب يسكن حقيبتها منذ شهر: «المياه بلون الغرق» لإميل سيوران. إنه الكتاب الذي أهداه إليها زميل مولع بالأدب. كان حلمه أن يصبح كاتباً مشهوراً. تعاطفت معه لكثرة إخفاقاته في نشر ولو مقال واحد في أي من الصحف المحلية. عندما طالعت بعض ما يكتبه عرفت السبب، فقد كانت له عبارات صعبة الفهم وإنْ بدت عميقة. ذات يوم أخبرها بأن الكاتب يحتاج إلى أحد أمرين كي يصبح مشهوراً: حظّ من السماء أو موت مبكر. استقال بعد أشهر ولم تسمع عنه حتى

تسلّمت رسالة يخبرها بنجاحه في نشر أولى كتاباته، وأنه بصدد إصدار رواية. وختم رسالته بعبارة أعجبتها «لقد صنعت حظّي». أخذت تقلّب صفحات الكتاب وتتذكّر زميلها البعيد يردّد على مسمعها «من السهل أن يكون الإنسان عميقاً، يكفي أن يستسلم لفيض ثغراته الخاصة». وفكّرت «لو كنت بهذا العمق لما نسيت اسمي». بعد ساعتين من القراءة المتقطعة أحسّت بضجر، فجمعت أغراضها، وغادرت.

عادت تسير في شارع جميرا المحاذي للبحر، حيث تنتشر مراكز تجارية وطبية لا حصر لها ممتدة إلى «برج العرب». في أحد المنعطفات خطرت لها فكرة أن تزور البيت الذي سكنت فيه يوم قدمت إلى دبي أول مرة. فكّرت أنها ربما وجدت صديقة لا تزال تسكن هناك. كانت تعلم أنها على الأغلب لن تجد أحداً من الذين التقتهم في اليوم الأول. فمن يفرقهما أول طريق في دبي، لن يلتقيا ولو على شارع الشيخ زايد بمساراته الستة في كل اتجاه.

طالعها من بعيد «برج خليفة»، فتساءلت «كيف يبدو المنظر من أعلى يا ترى؟» ليس بعيداً عنه طالعتها أبراج شارع الشيخ زايد. كانت تبدو وسط ضباب رطوبة خفيف كقلاع سوداء تلمع قممها بوامضات ضوئية. أحياناً تعلو العمارة الواحدة أربع أو خمس وامضات كتلك التي توجد على أجنحة الطائرات. تراءت لها العمائر العملاقة التي تعانق السماء كما لو كانت تعلن وجودها من خلال وامضاتها تلك. إنها تريد أن تقول للعالم كله أنا هنا. العمارة الخضراء التي نبتت بجوار عمارتها قالت الشيء ذاته منذ الصباح، وبلا وامضات. تذكّرت أنها في اليوم الثاني

لوصولها، سارت على قدميها بشارع الشيخ زايد تنظر إلى العمائر وتعدّ طوابقها. استغربت يومها حماسة الإنسان إلى كل ما هو فوق وكأنه في رحلة صعود سماوية منذ خلق.

ذاكرتها النشطة تسترجع كل شيء عدا اسمها. انحرفت بسيارتها تجاه شارع «المنخول»، ومنه انعطفت إلى البيت الذي سكنته أول مرة في شارع «الرولة». أوقفت سيارتها أمام عمارة من خمسة طوابق كانت هي أول مكان استقبلها في هذه المدينة الشابة منذ أربعة أعوام. صعدت إلى الطابق الثالث، ووقفت أمام الشقّة رقم ٣٩. ترددت أمام الباب قليلاً، فالوقت ليس مناسباً لزيارة غريب. لكن شجّعها على طرقه معرفتها أن خلف هذا الباب تسكن فتيات كثيرات، معظمهن يزرن دبي للمرة الأولى، كما حدث معها هي. إنها محطة استقبال القادمين الجدد إلى المدينة. شقّة استأجرها رجل سوري وزوجته، قسّما حجراتها الأربع إلى غرف فندقية، يقيم في الغرفة الواحدة أكثر من ثلاث فتيات أحياناً.

فتحت سيدة في منتصف الأربعين الباب، كانت هي زوجة الرجل السوري.

«مساء الخير. وعذراً لو أتيت بلا موعد».

«أهلاً بك. هل تبحثين عن غرفة للكراء».

«لا، قد سكنت هنا منذ أربع سنوات. ألا تذكرينني؟».

تفرّست المرأة السورية في ملامح زائرتها، وأجابتها بسؤال: هل كنت تسكنين هنا؟ «نعم». لكن السيدة لم تتذكّر. فعادت تسأل: «في أي غرفة كنت؟».

«إنها التي إلى اليمين. بقيت فيها أسبوعين».

«ما اسمك عزيزتي؟» لم تدر بم تجيب، وعالجت الموقف بابتسامة متكلّفة «كنت أسكن مع فتاة روسية اسمها نتاشيا، بيضاء طويلة لها شعر ذهبي طويل». رددت السيدة السورية «نتاشيا.. نتاشيا. ربما، لست أذكر فقد سكن هنا الكثير من الروسيات ولا توجد واحدة اليوم باسم نتاشيا».

كان يمكن للموقف أن يتبدّل لو تذكّرت السيدة السورية من تكون الشابة التي أمامها. لكنها، وإنْ تذكّرت الوجه، لم تكن لتتذكر اسماً بين عشرات الأسماء اللاتي عبرن عتبة بابها، كما أن عمر القصّة أربعة أعوام.

دعتها السيدة إلى الدخول وقدمت لها فنجان قهوة وبدأتا الحديث عن السكن والمعيشة الغالية، وارتفاع الأسعار الذي يفوق ارتفاع برج المدينة العالي.

بدا أن السيدة السورية تلمح إلى أن ارتفاع الأسعار، يعني أن على ضيفتها دفع ثمن أكبر من الذي دفعته سابقاً إنْ هي أرادت كراء حجرة. «أنا هنا أبحث عن بعض الصديقات القديمات ليس إلا» قالت وأعطتها اسماً آخر لفتاة بولندية وثالثة أوكرانية.

لم تتذكر السيدة أيّ اسم.



مع الرابعة عصراً عادت تذرع طرقات دبي بذهن شارد. مضت تقود بتروٍ إلى أن وجدت نفسها تدخل شارع الشيخ زايد من أوّله حيث الأبراج البراقة تصطف كمشاة بحريّة فوق

بوارجهم، ثم طالعها إلى اليسار «برج خليفة» بقامته التي تشبه صاروخاً يتأهّب للانطلاق للفضاء. «ما حاجته للانطلاق؟» تساءلت «إنه في الفضاء بالفعل».

بعد أن تجاوزته طالعتها أبراج زجاجية متباينة الارتفاع إلى اليمين واليسار، من المدينة التكنولوجية، وحتى قرية المعرفة والمدينة الإعلامية.. «يا إلهي.. من أين أحضروا كل هذا الزجاج؟» استغربت كمن تقع عيناها على هذه الأبراج للمرة الأولى. طالعها المزيد والمزيد منها. وللحظة فكّرت «هل كلها نبتت في ليلة واحدة؟» أمسكت المقود كسائق رالي ومضت مسرعة دون أن تتلفت يميناً أو يساراً. بدت في الوضعية نفسها التي تقود بها في طريقها إلى مكتبها كل صباح. وقد فسر لها ذلك لماذا هي تجهل مدينتها التي تكبر. «المدينة تسبق من صنعها» تمتمت وهي تسير بمحاذاة المترو إلى يسارها قبل أن يتوقّف في إحدى محطاته التي تشبه قوقعة مدرعة. طالعها إلى اليمين «مرسى دبي» المليء باليخوت الفاخرة وهي تبحر في قنوات مائية وسط أبراج متباينة الارتفاع تنفرج على البحر. لقد أسرتها هذه المنطقة منذ اليوم الأول، وكثيراً ما تمنّت السكنى فيها لولا ارتفاع ثمنها. في الجهة المقابلة، كانت منطقة أبراج البحيرات التي رأتها بديلاً ثانياً إن استعصى عليها المرسى حال قررت الانتقال يوماً. بعد أن تجاوزت مسرعة كل ذلك وجدت نفسها قريبة من مركز «ابن بطوطة» التجاري على أطراف المدينة باتجاه «جبل علي». كانت الأعمال الإنشائية الممتدة حتى العمق تربك أي زائر جديد إلى المنطقة، جسر يُبنى هنا، ونفق يُحفر هناك، ومسارات جديدة تفتح كل يوم. ما عادت تعرف من أين تدخل وكيف ستغادر. هذه التبدّلات

السريعة جعلتها تتساءل إن كانت ستجد طريق منزلها الذي غادرته قبل ساعتين لا يزال مكانه أو تغير.

قرّرت، وقد وصلت إلى هناك، أن تزور مركز «ابن بطوطة». رأت ذلك فرصة كي تغيّر مزاجها بقراءة وجوه جديدة، وتتسوّق حاجيات أسبوع قادم. بصعوبة وجدت موقفاً لسيارتها. أوقفتها بشكل مائل وترجّلت. وهي تسير ضمن أروقة السوق، لاحظت أنها تهرول. لم تعط نفسها فرصة تأمّل تفاصيل بدت غاية في الدهشة. شيئان شدّا انتباهها فقط: مجسّم فيل هندي بالحجم الطبيعي، وقاعة على النمط الإيراني. تحت هذه القبّة تحديداً، ورغم منظرها الآسر والمبالغ في ارتفاعه، وجدت نفسها تبتعد مسرعة. أحسّت بأن هذا الارتفاع والألوان الخضراء والزرقاء التي تزيّنها تشبه العمارة التي جعلتها تنسى اسمها منذ الصباح.

مضت عائدة إلى نقطة انطلاقها، وسارت بهدوء أكثر. بعد نصف ساعة من التجوال المتقطع بين هرولة وتروٍّ، دخلت إلى سوبرماركت المركز. أمضت ساعة خرجت بعدها بعربة ممتلئة. كانت تنوي المضي إلى السيارة لو لم توقفها رائحة قهوة نفّاذة من مقهى مجاور. جلست إلى طاولة تتصدر المكان. طلبت قهوتها وأخذت تقرأ في وجوه الناس. إنها عادة أكسبتها إيّاها وحدة أيام العطل، وبضعة كتب قرأتها عن قراءة الوجوه. في البدء كانت تحاول أن تحدد الحزينة منها والفرحة، الوحيدة منها والممتلئة بالحياة. لم تكن هي بالسيدة الحزينة كي تبحث عمّن يشاركها في الحزن، لكنها لم تكن بالفرحة أيضاً. أما الوحدة فقد رأتها القاسم المشترك بين كل الوجوه، وتحديداً النسائية، وكم تساءلت «ألا يشعر الرجال بالوحدة أيضاً؟»

تأملت طفلة تركض بعيداً عن والدتها. لها شعر كستنائي طويل، وثياب زاهية، مع حذاءين مقلّمين بخطوط بيضاء وزهرية. صرفتها عنها مشادة كلامية بين سيدتين لبنانيتين. لا تعرف سبب الخلاف. لكن المضحك أنهما بدأتا مشادتهما باللغة الإنكليزية، وقد كانت ركيكة لدى إحداهما.

انتهت المشادة سريعاً كما بدأت. رشفت قهوتها بهدوء وعادت تتفرّس في الملامح الكثيرة أمامها. شعرت أنها تجلس في مقهى هو مفترق طرق بين شطري الكرة الأرضية. العالم كله يمرّ هنا. ولأول مرة تلاحظ أن الناس لا يسيرون على مهل بل يهرولون. قدرت أنها هي نفسها تهرول مثلهم دون أن تدري. وتساءلت لماذا الناس هكذا؟ إنهم أشبه بقطيع هارب من شيء ما. لكنه قطيع فوضوي، فحتى الحيوانات تهرب في اتجاه واحد.

«الناس يركضون، الناس يركضون... حتى أولئك الذين يسيرون ببطء، هم في داخلهم يركضون». في قناعتها أن لو انفصلت الأرواح عن أجسادها لسبقتها بخطوات بعيدة.

مرّت من أمامها سيدات عربيات يتحدّثن إلى أبنائهن باللغة الإنكليزية. «إنهم يريدون أن يكونوا إنكليزاً بالقوة» قالت في سرّها. بعد لحظات مرّ فوج من الهنود يحدّث بعضهم بعضاً بالإنكليزية أيضاً. «هؤلاء يصرّون على أنهم إنكليز بالقوّة» قالت في تهكم.

بين الجموع رأت عائلة خمّنت أنها أميركية، الأمّ تدفع عربة رضيعها والأب يسير بزهو وتواضع مصطنع، كما لو أن البيت الأبيض في الجيب الأيمن وصاروخاً نووياً في الجيب الآخر.

استغرقت الرشفة الأخيرة من قهوتها عشر دقائق. وقبل أن تنهض جلست بالقرب منها فتيات إماراتيات بدا من تبرّجهن وتسريحة شعرهن أن ثلاثة أرباع رواتبهن من نصيب الكوافير.

مضت تدفع عربتها. ورغم الهدوء الذي بدا على قسماتها، كان داخلها يزداد غضباً على حماقة ذاكرتها، ولم يكن من الصعب التكهّن بأنها منذ لحظة اكتشاف ضياع الإسم، منذ لحظة اللاهويّة، وهي تتمنّى أن تجد من يقول لها كيف أنت يا فلانة؟

قبل السابعة مساء، أوقفت سيارتها أمام بنايتها. نزلت وهي تنظر بذهول لم يفارقها إلى العملاقة الزجاجية الخضراء. كان العمال لا يزالون يعملون على أضواء قوية تركّزت على قمّة البناء وأسفله. حملت أغراضها وصعدت إلى شقّتها.

لم تكن تعلم أن مفاجأة جديدة في انتظارها.



بين غياب وحضور، ابتعدت ذاكرتها أثناء رحلة التسوّق ورؤية الناس، عن التفكير في اسمها الذي نسيته. لكنها عادت تفكر فيه بقوة وهي تدخل شقتها. مضت ساعات طويلة دون أن تتذكره، وبدا الأمر أكبر من نسيان موقّت.

وضعت ما اشترته على طاولة جانبية بالكاد تكفي شخصين في زاوية مطبخها الصغير. وشرعت تنزع ملابسها وهي تعود إلى ترداد جملة أسماء «ليلى، عفراء، سعاد، أمل...» أحسّت بغضب، حتى إن أحد أزرار قميصها طار من مكانه دون أن تدري. وقفت أمام مرآة حجرتها تنظر إلى نفسها، وذهنها يبحث

ولو عن حرف صغير يرتبط باسمها.

تعرّت أمام المرآة، وبقيت واقفة لثوان لا تفعل شيئاً أو تفكر في شيء. مضت إلى الحمّام وتحت الماء الفاتر الذي تحب، عادت إلى لعبة الأسماء. لكنها ما لبثت أن شعرت بطاقتها استُنزفت. فألقت بنفسها على السرير ملتفة بمنشفتها متحاشية النظر باتجاه النافذة. أشغلت نفسها بالتفكير في ما ستعد على العشاء. بحثت عن سجائرها، فوجدت أنها نسيت شراءها وشراء فوط صحية، فهي تتوقع الموعد الليلة أو الغد على الأكثر.

«الوقت، الوقت، خصم المرأة القديم». كانت بعض أفكار أنثوية تعمل في داخلها، فأخذت تقلّب في رأسها كيف هي حياة المرأة قائمة على توقيتين: البلوغ واليأس. ورغم الوحدة التي تستشعرها أيام العطل، رأت نفسها محظوظة مقارنة بأخريات. أخريات لم يعرفن شيئاً عن الحياة. فلم يحببن، ولم يعشقن، ولم يجرّبن. فكرت كم تخاف الفتاة أن تصل إلى الثلاثين ولا تزال عذراء، وكم ترعبها الأربعون ولا تزال وحيدة.

عندما فكرت في ذلك، ألفت نفسها تفكّر في حياة كل النساء على الأرض، كيف أن الرقم هو المتحكّم الأول فيهن. فالحمل أرقام، والدورة أرقام، وسنّ الزواج أرقام، وحتى اليأس ذاته أصبح رقماً.

فكرت للحظة أيضاً كيف أن لعبة الأرقام هذه تسري على الرجال بالمثل، ولكن باتجاه المال وحده. الأرقام الأخرى لا تعني لهم شيئاً، ومن أجل ذلك، وأمام المال، لا تعني المرأة للرجل كثيراً.

استوت فوق السرير على ظهرها، ثم مالت إلى الجهة الأخرى حيث النافذة. أحسّت بشيء يدفعها تجاهها. كانت هناك أضواء غريبة تأتي من العمارة الخضراء التي نبتت في ليلة واحدة. اعتقدت بادئ الأمر أنها بسبب الإنشاءات أو وامضات ضوئية وضعت للتو. لكن الأضواء التي رأتها بدت مختلفة. كانت تأتي من داخل العمارة لا من خارجها. اقتربت من نافذتها بهدوء، وأزاحت طرف الستارة ونظرت. تجمّدت للحظات ثم تمتمت وهي تهزّ رأسها يميناً ويساراً «غير معقول.. غير معقول».

كانت الأدوار السفلى من البناية التي نبتت بالأمس، ولا تزال تصعد إلى السماء، قد بدأت تمتلئ بساكنين جدد. حتى الستائر وضعت ومن خلفها أشعلت مصابيح إضاءة جانبية، فيما رجل أو امرأة، لا تستطيع أن تحدد، يتحرك جيئة وذهاباً كما لو كان يعدّ طعاماً.

العمارة لا تزال تُبنى، وتصعد إلى الأعلى، والأدوار السفلى قد شُغلت بالناس. «ماذا سيحمل الصباح إذاً؟».

شعرت بخوف، وشيء دفعها إلى أن ترتدي ثياباً رياضية على عجل وتغادر شقّتها.

انعطفت بسيارتها تجاه شارع جميرا. لكن قبل أن تصل إليه، وقفت في مكان حافلة عامة تلتقط أنفاسها. تطلعت إلى عينيها في المرآة الأمامية. كانت آثار الهالة السوداء لا تزال هناك. تمتمت بكلمات غير مفهومة، أرخت جسمها قليلاً، وتنفّست بعمق. أزعجها صوت بوق باص احتلت هي مكانه، فمضت متأففة تتابع طريقها باتجاه مركز تسوّق صغير اعتادت زيارته من

وقت لآخر. هناك، في القاعة السفلية على المدخل الرئيسي حيث يمتدّ مقهى كبير في وسط المكان، كان بعض أطرافها لا يزال يرتعش.

لم يأت اختيارها للمكان صدفة، وإنْ بدا الأمر كذلك. فقد داخلها أمل أن تلتقي صديقة أو زميلة ترتشف قهوتها أو تتجول بصحبة عائلتها. إنْ حدث ذلك، فستتذكّر اسمها عندما تنطق به. تلفتت يميناً ويساراً وهي تدخل من الباب الرئيسي كمن تبحث بالفعل عن صديقة واعدتها. جالت على بعض المحال في الطابق الأرضي ثم العلوي. كانت تنظر إلى الزائرين الذين ازدحم بهم المكان أكثر مما تنظر إلى المعروض. وقبل أن تنزل إلى مقهى في الأسفل، طافت في جولة سريعة على قسم المطاعم تطالع كل طاولة. كان انصراف الناس إلى طعامهم يوحي بشكل ساخر كما لو كانت تلك وجبتهم الأخيرة.

في القاعة السفلية، طلبت فنجان قهوة وسط صخب أصوات تلتحم بأصدائها لأطفال يلعبون ويركضون.

لكن شيئاً غريباً حدث معها فور جلوسها. فذاكرتها بدأت تعمل بنشاط وعمق أسرع مما كانت عليه في الساعات الماضية، مقتربة إلى اسم بدا مألوفاً لها. لكنه بقي يلوح من بعيد كسراب لا وجود له. للحظة أحسّت أنها ستتذكره، لكنه لا يلبث أن يختفي. وسط القرب والبعد أخذت صور أشخاص قدامى وأسماء بعيدة نسيتها منذ زمن، تغزو ذاكرتها. أحسّت أن صدمتها الثانية يوم رأت ساكني العمارة الجديدة، هي سبب هذا التمرّد العجيب لذاكرتها، فقررت أن تناور. بدأت تسترجع الأسماء

القديمة برويّة، ثم الأحداث المرتبطة بها. استرجعت بعض ما كان يقوله والداها، وشقيقاها، وشقيقتها الوحيدة التي تعيش في كندا.

فجأة تذكّرته. ما كانت تحبّ أن تفعل، لكنها تذكرته. ليس اسمها هي بل «سليم»، الحبيب الذي هجرها أو هجرته. حتى بعد مضي أربع سنوات على اللقاء الأخير الذي لا تعرف أكان هو أم هي سببه، عاد باسمه وشخصه ورائحة عطره إلى الذاكرة. كرهت ذاكرتها التي أعادته. ما كانت تمانع لو نسيت اسمها العمر كله شرط أن لا تتذكر «سليم»، الشاب الوسيم الذي أحبته طوال عامين. تركها أو تركته. تعبت من التفكير والتحليل. عندما التقته أول مرة أحسّت أنه هو من تنتظر، ثم اكتشفت خطأها.

ما يجعلها تهرب من ذكرى «سليم» أمران: والدها، وهو. والدها لقسوته، وعدم اهتمامه بها. فقد كان يفتقر إلى حنان أب سويّ، وإلى لمسة حانية على شعرها لم يبادر بها يوماً. لقد بنت قسوته حاجزاً ضخماً بينهما، حاجزاً كان يؤخّرها عشر خطوات إلى الوراء كلما أرادت أن تحادثه أو حتى تهنّئه بعيد أو مناسبة. وقد بقيت المسافة تبتعد حتى انفصل خيط مشاعر واه بينهما عندما أجبرها على الزواج من رجل عاشت معه شهرين فقط ثم عادت إلى منزل أهلها بخيبة عظيمة. شكل الرجل يأسرها، وما كان شكل زوجها ليقنعها رغم طيبته وتحمّله نزقها. لم تكن هي صعبة المراس، وإن اشتهرت بعناد طفولي حاد، نما فيما بعد إلى إرادة غاية في الجدّة. وقد أتقنت استخدام موهبتها تلك عندما وجدت نفسها زوجة رجل لا تحبّ شخصه ولا يجذبها شكله. هي نحيلة القد وهو متكور. يفتنها الطويل وهو أقصر منها

بضعة سنتمترات. لاحقاً، عندما ارتقى الجنس عندها إلى درجة الفن الحقيقي اكتشفت أن ممارستها الأولى معه لم تكن جنساً، بل عبثاً، وأن الجنس الحقيقي ليس في الاتصال الجسدي ذاته بل ما يكون قبل الاتصال وما يأتي بعده، لأنه فعل للحب لا فعل للجسد، وهو ما كان يجهله زوجها شأن كثير من الرجال الذين عرفتهم من بعده. هذه الأسباب كلها دفعتها عند أول خلاف تعمّدته إلى حزم حقائبها والعودة إلى بيت أهلها.

حاولوا ثنيها عن قرارها، بالتهديد والإغراء، لكن القرار اتخذ. سألتها أمّها حينها «وماذا بعد؟».

أصاب السؤال وتراً أنثوياً لا يملك الرجال مثله. وفكّرت في داخلها إنْ كانت والدتها قد سألت نفسها هي قبل أن تتزوّج بوالدها: وماذا بعد؟

لقد أثار مغزى السؤال زوبعة عاطفية بعد أن اكتشفت من تجربة زواجها الفاشلة أن «ماذا بعد؟» لا تعني أن تصبح الأنثى رهينة رجل.

لم يجد الزوج بدّاً، بعد أن أعياه الانتظار والأمل بعودتها، سوى أن يدعها تذهب في طريقها. إنْ كان من شيء تحسبه له فهو قراره هذا. بعد أربعة أشهر من طلاقها تعرّفت على «سليم» الذي يكبرها بأربعة عشر عاماً، والذي كان يطابق مواصفات من حلمت به، بقامته الطويلة، وسمرته، وشعره الجميل الذي كسا جانبيه بعض بياض وقور. كان هذا البياض يأسرها، ويشعرها أن «سليم» ليس حبيباً فقط، بل أب كثيراً ما افتقدته حتى وهو جالس أمامها لا يبالي إنْ سقمت أو تألّمت. لكن وبسبب جنسيته

المختلفة، فقد رفضه والدها دون حتى أن يسألها. لم تأبه لرفضه وتركت حبها ينمو مع «سليم» على أمل أن يتغيّر الوضع ذات يوم. كانت لها قناعة قدرية بأن في تجاهل الأمور الشائكة طريقة مثلى لحلّها. لكن شبح الأب كان يعاند القدر ذاته. فحال الشبح دون أن يجرؤ «سليم» على التقدّم ثانية بعد أن رُفض المرة الأولى. ثم أتت الضربة الثانية عندما اصطدم الإبن بوالدته التي رفضت زواجه، وهو الوسيم الثري الأعزب، بامرأة مطلقة. حينها قال إنه لا يأبه لأهله أو أهلها ما داما متحابين.

سألته «وماذا بعد؟».

أتاها الجواب بعد يومين. رحل «سليم» دون أن يترك تبريراً واحداً يفسّر رحيله المفاجئ. أخذ كل أمل معه في حياة سعيدة تاركاً وراءه كومة محطمة وبقايا عطر على جسدها. هل كان يحبها؟ نعم أو لا. لم تعرف أي الإجابتين أقرب للحقيقة. نعم كان يحبّها لأنه قال «لن يبعدني عنك أحد». نعم كان يحبّها لأنه الوحيد الذي داعب خصلات شعرها بحنان افتقدته في أبيها. نعم كان يحبّها لأنه الوحيد الذي كان يصغي باهتمام قلما عرفته وهي نائمة على صدره كطفلة. نعم كان يحبّها لألف سبب آخر، لكنه في النهاية رحل. لا.. هو لم يحبّها إذاً؟ هل أخذته أخرى، أم رضخ لعائلته التي قال إنه لا يأبه لها؟ أسئلة كثيرة عاشتها في لجّة عذاب طويل، زاده عمقاً إحساسها بوحدتها بين أهلها. يومها اكتشفت أن الوحدة الحقيقية هي أن تعيش بين من لا يسمع ألمك ولا تستثيره خفقات قلبك الخائف من قادم غامض.

عاد «سليم» بعد عام أو أكثر خاضعاً مترجّياً. لم تسأله لمَ

غادر، ولم تسأله لمَ عاد. فقد أماتته ليالي المعاناة الطويلة. وإنْ ترددت لحظة أمام استجدائه لفرصة أخرى، فقد حال فقدان الأمان به دون الصفح عنه. بعدها قررت أن تنصب سرادق عزاء له تحت ضلوعها. كان بين الحضور والدها وبضعة كلاب.

والدتها أثبتت كم هي تقليدية يوم أخبرت ابنتها بأن طلاقها السريع سيجعل من زواجها برجل مثل «سليم» إعجازاً لا يتكرر مع امرأة مطلقة. ولامتها كثيراً إنْ رفضت عودته مؤكدة أنها كفيلة بإقناع والدها. لكنها رفضت أن تعود لمن تركها. إحساس الأمان الذي وفّره لها طوال عامين مات في لهيب نيرانها. بعد وقت لم يدم طويلاً، بدأت نصائح الأمّ تتحول إلى هراوة تدمي الرأس.

«هل للرجال سوق يعرضون فيه كي أنتقي واحداً؟» كانت تسأل أمّها كلما تشاجرتا حول الزواج. «العمر يتقدّم يا بنتي ولا أريدك أن تبقي وحيدة بقية حياتك». «ولا أنا أريد ذلك يا أمّي». نقاش كهذا يدور في اليوم الواحد أكثر من أربع أو خمس مرات مملاًت. في مرات قليلة، ورضوخاً لضغوط أمّها، تمنّت لو لم ترفض «سليم» عندما عاد.

مع ازدياد الهوّة اتساعاً بينها وبين أبيها، وتوالي الشجارات مع أمها، قررت أن تغادر إلى دبي، حيث الواقع والأسطورة. في مدينتها الجديدة نسيت «سليم»، أو حاولت، لكنه لم ينسها. فقد حاول الاتصال بها والكتابة إليها بلا نتيجة. لم تكن تعرف أيضاً أنه تبعها ذات مرة إلى دبي دون أن يفلح في لقائها بعد أن أخفى أهلها، بناء على رجائها لهم، أين تكون.

لقد قررت في تردد متعب أن تبدأ حياة جديدة. وبقي القرار

متذبذباً في داخلها حتى أوقفته بعد حين عند خطّ يفصلها عن الماضي، منغمسة لغايتها هذه في عمل لا ينتهي. وهي إن أفلحت في تحقيق ما أرادت، فما كانت قد عرفت أن الوحدة الحقيقية في حياة الانسان، وبعيداً عن الأهل والوطن هي بهذه الدرجة من القسوة. لم تكن تخجل من الاعتراف أمام نفسها، بأنها تمنّت في بعض لحظات ضعفها لو أنها صفحت عن «سليم». لقد كانت تخلق بذلك، ودون أن تدري، ندماً أخذ يزداد عمقاً في داخلها، لم يلبث أن ترافق مع يأس شعرت به في العثور على رجل بنصف ما كان يمتاز به «سليم». ومع بعض الرجال الذين تعرّفت إليهم، تأكّدت أن وحدتها قد تطول. ما كان يخفف معاناتها معرفتها أنها ليست هي فقط من يعيش وحدة المدن الفتية. وكثيراً ما رددت في عقلها، وبقناعة مطلقة، أنه لو تجسّدت آلام وحدة كل إنسان نصادفه لأمكن أن نرى دموعاً سوداء تسير بيننا على قدمين.

هل هي لعنة «سليم» تطلّ عليها أم صورة والدها أم هي العمارة الخضراء وقاطنوها الجدد ما نكأ الجرح القديم؟

أحياناً تسأل نفسها، وتشعر ببعض الأسى على من راح، وعلى سنوات مضت، لكنها ما تلبث أن تستجدي التفاؤل بما حققته حتى الآن. وبإصرار عجيب أقنعت نفسها بأن كل إنسان لو ذرف دمعة على قرار ندم عليه لحدث فيضان عظيم آخر.

قطع تفكيرها صوت عازف بيانو في الطابق العلوي من المركز. أخذ العزف ينساب إلى نفسها كماء عذب في يوم قائظ. شعرت بارتخاء كانت في حاجة إليه. وبشكل ما دخل إلى

نفسها أن مفاجأة الصباح الغريبة والمربكة، ستتبعها مفاجآت أخرى.

****

في المقهى، حيث هي جالسة، انصرفت إلى هوايتها قارئة في وجوه العابرين والجالسين. رأت بعض الزبائن الواقفين في طابور ينتظرون دورهم لشراء قهوتهم. بدا على بعضهم التأفف من الانتظار.

خمّنت في تأمّلها، أن المشكلة وراء تأففنا من الانتظار لا يعود لانشغالنا بما هو أهم، بل بسبب رفضنا الانتظار بحد ذاته. لا شيء في حياتنا يستدعي العجلة، لكن الانتظار يفصلنا عن الآخرين ويشعرنا كم نحن وحيدون.

فكّرت، وهي تتأمّل، أننا هكذا نرى الأمور بعيوننا. أو نريد أن نراها هكذا. ومضت تفسّر كيف أصبح الناس أكثر هشاشة في داخلهم بسبب وحدتهم. «إنه الانسان الذي فقدناه في داخلنا، وليس عامل المقهى الذي أبطأ».

قطعت تفكيرها هزّة من هاتفها الجوّال. كانت رسالة من صديقة تسأل عنها بكلمتين: كيف أنت؟ ردّت: أنا بخير. شكراً على سؤالك. بقيت بعدها عشر دقائق تنتظر رداً على رسالتها. حالة انتظار بدت طويلة. ثم لا شيء.

سارت من أمامها عائلة خليجية باتجاه السلالم الكهربائية التي تقود إلى المطاعم في الأعلى. خمّنت أنها عائلة سعودية من طريقة سيرها، كما أخبرها صديق ذات يوم: أب في المقدمة

يسير مسرعاً وحده، تتبعه زوجة لاهثة بعدة خطوات، ووراءها أربعة أطفال ترعاهم كقطيع صغير خادمة أندونيسية.

أخذت تعبث بهاتفها الذي أمضى اليوم شبه صامت. حتى المكالمات الهاتفية، تحوّلت من قصرها وندرتها إلى رسائل مختصرة، مختزلة في أحرف. «ما هي أحرف اسمي يا ترى؟» سألت نفسها للمرة العاشرة.

نظرت باتجاه المدخل الرئيسي ببابيه الزجاجيتين الكبيرين. ركّزت كمن تبحث عن صور قديمة تعود إلى اليوم الذي رأت فيه صدفة صديقتها علياء عند هذا المدخل. كان لقاء بعد طول غياب. إنها تسترجع الآن تفاصيل ما حدث ذلك المساء، وكيف رأتها صديقتها أولاً، وصرخت تناديها باسمها، نعم، إنها تتذكّرها، وتتذكّر فستانها البيج متدلياً بحشمة على بنطلون أسود، ومكياجها الخفيف حدّ العدم. «ما كان الاسم الذي نادتني به؟» وأسندت جبينها إلى راحة يدها «ما هو.. ما هو..؟» ردّدت وأخذت تخبط الأرض برقّة وتعبث بالهاتف في يدها. ثم بدأت تخبط بقوة وتقلّب الهاتف بشكل أسرع. شعرت بها تقترب من اسمها وازداد توتّرها مع ضربة قدم مسموعة تتصاعد وتتصاعد. كان الإسم يقترب حتى ليكاد يهمس في أذنها معرّفاً عن نفسه، لكن فجأة تجمّدت كل خلية ذاكرة في عقلها، ورحل ما بدا قريباً. توقّفت ضربات قدمها وسقط الهاتف على الأرض.

التقط الهاتف رجل كان يجلس بالجوار مع عائلته وقدمه لها بأدب. شكرته ثم تفحّصته خشية أن يكون قد لحق بجيش من الهواتف قبله، ولم تلبث أن عادت تعبث به وتقلّب أزراره.

فتحت قائمة الأسماء، فطالعتها أسماء أشخاص لا تعرفهم «من هم كل هؤلاء؟» لم تكن تفكّر في الأسماء بقدر ما كانت تفكّر فيمن يكون أصحابها؟ ماذا يصنعون في حياتها، ماذا يفعلون في هاتفها؟ حتى ذاكرتها التي نشطت بعد العمارة الخضراء تعثّرت قليلاً وهي تفتح أدراجها القديمة. ربما التقتهم في يوم ما في مكان ما، وبدأت تسترجع صور بعضهم. أحصت أرقاماً لأناس لم يجمعها بهم أكثر من لقاء عابر، مضى بعدها كل في طريق وقد سجّل رقم الآخر، وهو يعلم أنه قد لا يراه من بعد أو يتصل به «لماذا تبادلنا الأرقام إذاً؟» سألت نفسها في تهكّم «هم أيضاً سيجدونني على هاتفهم، ويسألون «من هذه؟».»

مضت تواصل العبث بهاتفها متنقلة من قائمة خدمات إلى أخرى. في غمرة عبثها، طرأت لها فكرة قراءة بعض الرسائل القديمة، وحتماً ستقع على اسمها في واحدة منها أو أكثر. كانت هناك سبع وثمانون رسالة، يعود تاريخ أقدمها إلى عشرة أيام مضت، وما قبل ذلك مسحته. «سبع وثمانون تكفي» فكّرت وبدأت تفتح رسالة وراء أخرى. بعد ربع ساعة كانت قد طالعتها كلها، دون أن تعثر على اسمها في أيّ منها. لم يكن السبب أن معظم الرسائل الواردة تجارية بصيغة جافة، بل لأنها اكتشفت أن الناس ما عادوا يملكون وقتاً يكفي لكتابة رسالة كاملة، فيختزلون الأسماء في أحرف. «يا لهم من حمقى» قالت في سرّها وهي تفتح الرسائل المرسلة منها هي، علّها تجد رسالة ذيّلتها باسمها، فوجدت أنها كتبت كل رسائلها بالطريقة المختزلة ذاتها «مثلهم أنا إذاً».

أرخت خدها على راحة يدها وواصلت العبث بهاتفها. على

شاشته الصغيرة توقّفت أمام خدمات «البلوتووث» التي يمكن التواصل من خلالها مع الآخرين. لم يسبق أن جرّبت هذه الخدمة باستثناء مرّة قديمة. ضغطت على التشغيل، وانتظرت قليلاً قبل أن تظهر أمامها قائمة طويلة بأسماء هواتف مجاورة لها. كانت الأسماء غريبة وطريفة في وقت واحد: «المشتاق جداً جداً». «الطيّوب». «الباحث عن الحبّ» وعبارات أخرى هي أسماء رجال أو نساء يبحث كل منهم عن آخر. تجاهلت الأسماء وهي تنعت أصحابها بالتافهين، لم يطل الأمر قبل أن تتوقّف أمام اسم غريب: «أنا». «ومن تكون أنت يا أنا؟» تساءلت في اللحظة التي وصلتها رسالة من هذا الـ «أنا». كان عليها أن تقبل تسلم الرسالة أولاً، تردّدت قليلاً، ثم قبلتها، فإذا بها تحمل كلمات تشبه القصيدة. صعب عليها فهم معظمها، لكن توالت الرسائل، وقبلتها كلها. بدت العملية عبثاً طفولياً، لكنه عبث أخرجها من دوّامة تفكيرها. بعد قليل ألفت نفسها تبعث برسالة إلى هاتف «أنا». لم تدرك أنها بذلك ترسل رقمها إليه.

سريعاً تلقّت اتصالاً. لم تميّز رقم المتصل، واستلزم الأمر بضع ثوانٍ كي تتذكر أنه رقم «أنا» المميّز بأحرفه الثلاثة الأخيرة المتشابهة. ارتعشت قليلاً، وبدلاً من أن تجيب التقطت حقيبة يدها ومضت سريعاً، فيما عاد تلفونها يرنّ مرة أخرى.



كانت الساعة تقترب من التاسعة مساءً، عندما أوقفت سيارتها أمام البناية التي تسكن فيها. بقيت تفكّر طوال الطريق في هاتف

«أنا» الذي زاد من ارتباكات الصباح. فلم تكن في مزاج لتتحدّث فيه مع أحد يقتحم حياتها بهذه الطريقة. ولم تعلم هي نفسها السبب الذي دفعها إلى التواصل مع هاتف غريب. إنْ كان من تفسير يستحق أن تقف عنده، فهو أن اسم صاحب الهاتف هو ما دفعها إلى ذلك، فكلمة «أنا» بما تعنيه من ثقة بالنفس، كانت تلامس وتراً حساساً في داخلها مع نسيان اسمها.

شيء آخر حدّثت به ذاتها «لا أحد يريد أن يكون وحيداً في هذا العالم الإسمنتي». لم تعلم لمَ قالت ذلك، أهو بسبب هاتف «أنا»، أم العمارة الخضراء، أم بسبب «سليم» الذي شعرت به يدمي من جديد جراح الفراق القديمة كما لو أن لقاءهما الأخير قد تمّ بالأمس.

قبل أن تخطو داخل بنايتها، توقّفت قليلاً ثم سارت باتجاه اليمين، إلى البناية المعجزة التي ظهرت في أربع وعشرين ساعة. وقفت تحت زاوية لها، بعيداً قليلاً عن الأسوار الحديدية التي تحيط بأسفلها. كانت أصوات بعض العاملين تصدر من هنا وهناك. ورغم أنه المساء، لم تتوقّف حركة البناء ولا يزال الصعود مستمراً والقاطنون الجدد يدخلون ويخرجون. نظرت إلى أعلى ما استطاعت، فأحسّت كم هي قزمة بالفعل.

بهدوء أكملت طريقها باتجاه الجانب الشمالي من العمارة. لم تكن تريد رؤيتها من زاوية أخرى، أو لتتأكد بالفعل أنها هناك، بل كان هدفها شيئاً آخر.. إنه عمود إنارة ينتصب وحيداً في منتصف رصيف يفصل بين العمارة العملاقة وأخرى مجاورة لها.

كانت تشعر أن هذا العمود صديق لها. وكلما رأته أو مرت

بجواره، في المساءات تحديداً، وقفت أمامه كمن تحادثه. لم يكن العمود مقصوداً بذاته، بل الضوء الصادر عنه. فعندما رأته أول يوم اكتشفت أنه إذا نظرت إلى عمود مضاء بمعزل عمّا يحيط به فستشعر كم هو الضوء وحيد.

كانت إذا صعدت إلى شقتها، وقبل أن تنام وتغلق الستائر، تنظر إليه في الأسفل. «تصبح على خير» تقول له أحياناً، وأحياناً كانت تواسيه «ابتسم.. فقريباً ستشرق الشمس وتخلد إلى النوم».

ذاك المساء، وقفت تتأمّل في ضوء العمود، وفي رأسها سؤال يتردد «إلى متى سيبقى صامداً؟» وكما لو تهيّأ لها أن الضوء بدا خافتاً عن المعتاد، فقد أحست به متعباً كما هي متعبة، وفكّرت أنه ربما أراد أن يخبرها كم هو خائف من العمارة الجديدة أن تزيحه من مكانه كما هي حجبت الشمس عن حجرتها. وبصوت مرتفع سألته «هل أنت خائف؟» ودون أن تعي سالت دمعة على خدّها وهرولت باتجاه بنايتها.

أحسّت بضيق وهي تفتح باب شقتها. كان ضوء خفيف يتسلل من نافذة صالونها الصغير. أقفلت الباب، ومضت باتجاه الأريكة وارتمت عليها دون أن تشعل أي ضوء.

بدت لوهلة كشبح تصدر عنه تنهيدة وهو يلقي بظهره على الأريكة في عتمة مزعجة. نظرت إلى ساعة الحائط السوداء فكانت تقترب من التاسعة والربع. لا تعرف كيف استطاعت أن ترى عقارب الساعة في هذه العتمة. قدّرت أنها ربما أحسّت بالوقت أكثر منها رأته. «إنه الزمن مرة أخرى، يسخر منا أو نسخر منه» قالت وأخذت تتساءل عن شكل الزمن كيف تراه يكون:

مكعباً، مربعاً، مستطيلاً، دائرياً...؟ «نعم نعم، إنه دائري ولا شك، حتماً هو دائري» وأخذت تنظر إلى الساعة الحائطية بشكلها المدوّر كما هي ساعة معصمها. لكنها لم تلبث أن فكرت أن الزمن ربما كان خطاً مستقيماً، أو خطّين متوازيين أحدهما نحن والآخر هو.

ساد المكان هدوء إلا من تكتكات خفيفة تصدرها الساعة السوداء. وفي عتمتها تلك، استطاعت أن تميّز العقرب الطويل برأسه الفوسفوري الذي يشبه حربة مقاتل. وفي اللحظة التي قفز فيها دقيقة أخرى نهضت من أريكتها، وأحضرت مقعداً خشبياً من المطبخ، وضعته باتجاه الحائط ونزعت الساعة بعنف.

بعد ذلك أصبح يرى في منزلها، فوق تلفزيون صالونها الصغير، ساعة حائطية سوداء تعمل بعقرب صغير واحد.

لقد قررت منذ تلك اللحظة، أن لا تجعل ساعات يومها الطويلة تتفكك، كما هو عقرب الدقائق الطويل يفكك الزمن سواء كان مربعاً أو مضلعاً أو دائرياً. من أجل ذلك انتزعته وأبقت عقرب الساعة وحده. أشعرها تصرّفها الصبياني هذا بنصر في حاجة إليه على خصم يخيفها: الزمن.

لكن، وكما لو أنه يتقصد المعاندة، أخذ الزمن يسير في عقلها بالاتجاه المعاكس الذي ظلّت تهرب منه، مسترجعاً بعض ما مضى في يومها. أمسكت صدغيها وتأوّهت ثم رنّ هاتفها المحمول. كان «أنا» يتصل من جديد.

****

فيما الساعة تقترب من العاشرة مساءً، كانت علامات إرهاق نفسي تبدو واضحة في هالتي عينيها اللتين بدتا أكثر سواداً. قامت بتثاقل إلى الحمّام، ثم إلى المطبخ. أرخت رأسها على عارض الباب تفكر في ما يحدث معها. التقطت الهاتف تنظر فيه «يا له من عنيد». قالت معلّقة على اتصال «أنا» وبحثت عن علبة سجائرها. تذكرت أنها شربت آخر لفافة بعد أن غادرت المركز التجاري.

اتصلت هاتفياً بعامل السوبرماركت ذاته. ودون أن تكلّف نفسها عناء إخباره بمن تكون، قالت له فوراً: هنا شقة ١٧ وحدّدت طلبها. أخبرها أنه سيحضر ما تريد ولكن بعد نصف ساعة، فالشخص المكلف بتوصيل الطلبات للمنازل ذهب للتو في طلبيات جديدة.

حدّثتها نفسها بأن تنزل إلى المتجر بنفسها. لم يكن دافعها الحقيقي أن تشتري ما تريد بل أن ترى العامل الذي اعتادت شراء حاجياتها منه. صوت ما في داخلها أغواها بفكرة أن العامل ربما تذكر اسمها.

نزلت مسرعة. عندما رآها عرفها من ملامح وجهها. تصنّعت ابتسامة تردّ بها على ابتسامته المصطنعة. حاولت أن تدفعه إلى مناداتها باسمها بسؤاله عن حاله للمرة الأولى. لكن العامل اكتفى «بالحمد لله» وأرفق ردّه بهزّة رأس هندية صغيرة.

لم تسترسل أكثر، وانصرفت إلى ما احتاجته، وعندما وقفت لتدفع كرر العامل ابتسامته دون أن ينطق إلا بقيمة ما اشترت. بتروٍّ دفعت وانصرفت. لم تبد أي رد فعل على جهل عامل

المتجر باسمها، لأنها أدركت منذ اللحظة التي وطئت قدماها متجره، أن هذا البائع لا يعرف أسماء زبائنه، ولا يتذكر سوى القليل من ملامحهم لسبب بسيط: إنه ينظر إلى أيديهم فقط، إلى ما يأخذون من بضاعة. وكذلك هم الزبائن، لا ينظرون إلا إلى المال الذي يدفعونه له. إنها علاقة يد ليد، لا مكان فيها لصداقة أو أسماء.

وهي تحمل ما اشترت في طريقها إلى شقتها، قررت في داخلها أن تستسلم هذه الليلة لفقدان اسمها، علها تتذكره في الصباح، «حتماً سأتذكره في الصباح» قالت تطمئن نفسها.

لتصل إلى المصعد كان عليها أن ترتقي أربع درجات، تليها فسحة البهو الكبيرة، في يمينها أريكة عريضة ومقعدان من الجلد البنّي ونبتة خضراء على الزاوية. في الجهة المقابلة إلى اليسار مكتب صغير نصف دائري يرتفع عن الأرض بمقدار متر، يستقر خلفه حارس العمارة بلباسه الرسمي، قميص أبيض وبنطال كحلي. هم في العادة ثلاثة حرّاس يتناوبون على الخدمة في هذا المكان الصغير. جميعهم هنود على ما تعتقد، فهي لم تتواصل مع أي منهم، لكن أحدهم كان يلفت نظرها ببشاشة وجهه الدائمة مقارنة بزميليه، ولسبب ما كانت ترى فيه صورة ناسك يتعبّد.

في شقتها، لم تتناول شيئاً على العشاء، ولم تشعل حتى سيجارة واحدة. كل ما فعلته أن تمددت بثيابها على السرير وتعمّدت أن تصرف ذهنها إلى التفكير في يوم الغد وما يحمله من لقاءات ومواعيد.

أغمضت عينيها على أصوات عمّال ومعدّات بناء من البناية

المجاورة. تكاسلت عن لبس قميص نومها، واكتفت بنزع ما عليها بعينين مغمضتين. بقيت الأصوات تتناوب عليها بين استيقاظة وأخرى طوال الليل. لم تكن الأصوات ما أفقدها النوم العميق الذي اعتادت أن تنهل منه عشر ساعات أحياناً، بل الأحلام التي بدت كوابيس خرافية.

في الثامنة والنصف صباحاً كانت تهبط مهرولةً الدرجات الأربع في مدخل البناية في الطريق إلى عملها، وهي تحمل حقيبة يدوية كبيرة، بدت كبطة تتدلّى تحت إبطها.

لم تلتفت إلى بعض القاطنين وهم يغادرون المبنى في طريقهم إلى أعمالهم، لولا أن صوت أحد حرّاس العمارة أوقفها وهو يدندن عبارات بدت كأنها ترنيمة صلاة. ألقت نظرة خاطفة باتجاهه فوجدته الحارس البشوش ذا العينين الصافيتين.

ألقت عليه، في عجالة، تحية فاترة «صباح الخير يا أفتاب»، ونزلت الدرجات الأربع. قبل أن يفتح الباب الكهربائي أمامها جاءها صوت الحارس يردّ تحيّتها: «صباح الخير سيدة ياسمين»، وأغلق الباب وراءها. مرت ثانية، ثانيتان، ثلاث، قبل أن يفتح الباب من جديد وهي تهرول عائدةً إلى البهو. تعثّرت وهي تصعد الدرجات الأربع، لكنها نهضت مسرعة وسارت باتجاه الحارس: «ماذا؟ ماذا قلت؟».

الحلم

أخذت تكرر اسمها وهي تقود سيارتها باتجاه مكتبها «ياسمين، ياسمين، ياسمين» وتساءلت بصوت خفيض «كيف نسيت اسمي على بساطته؟»

لم تعلم تلك اللحظة ما إذا كانت تحسّ بالرضى على اسمها الذي عاد، أو أن الأمر لا يستحق عناء التفكير. مهما كان الوضع فقد كان استثناء حقيقياً أن ينسى الإنسان اسمه ليوم كامل، «أربع وعشرون ساعة بتمامها وكمالها». قالت وهي تلعب بأصابعها على مقود السيارة.

هذا الصباح، قبل أن تعثر على اسمها، وقبل أفتاب، بدت متردّدة وهي تتهيأ إلى عملها. فقد تقلّبت في فراشها طوال الليل. عادت أصوات أسماء بكل الجنسيات تتردد في حجرتها. أسماء عربية وهندية وإفريقية ولاتينية. حلمت تلك الليلة أيضاً أنها تنزع أوراق نبتة صغيرة ووحيدة بين كثبان رملية عالية. كانت كل ورقة تحمل اسماً. أفاقت وهي تتصبّب عرقاً، وبعد أن هدأت قليلاً، فكرت في ما رأته، وأحست أن تلك النبتة

ليست سوى ذاتها هي بعد أن تعرّت من كل أوراقها إلاّ ورقة واحدة تحمل اسمها. عندما حاولت أن تقطفها قذفتها الريح إلى مكان بعيد. ركضت وراءها لكن ساقها اليمنى تعثّرت بالنبتة الصغيرة. تخيّلت أن النبتة هي من مدت ذراعها كي تتعثّر بها. لا تذكر ما حدث بعد ذلك سوى أنها عادت ترى نفسها من جديد تركض بعرج خفيف بين مجموعة عمائر متراصة بعضها بجوار بعض بشكل ثلاثي أو رباعي.

كانت تركض من شيء يطاردها. بدا لها أنها مطرقة، ثم رأت مجموعة أدوات بناء تركض خلفها. توارت في زاوية شارع ضيّق معتم، وهناك رأت شيئاً قائماً فتشبّثت به كمن يمسك بشجرة في يوم إعصار. لم تعد تسمع أحداً يطاردها، لكنها بقيت ممسكة بالشيء القائم. بعد أن هدأت قليلاً، سقط نور من أعلى. فوجدت أن ما تمسك به هو عمود النور الذي ينتصب أسفل شقتها. أخذت تنظر حولها إلى أن ارتاعت من رؤية شيء يشبهها على مرآة زجاجية خضراء قبالة العمود. رفعت رأسها إلى الأعلى فرأت العمارة التي نبتت بجوار نافذتها. ازدادت تمسكاً بعمودها. رويداً رويداً بدأت الملامح تتضح. لم تكن هي نفسها التي تراها على المرآة، بل شيئاً آخر، شيئاً له وبر بني وذيل طويل. حركت يدها اليمنى فحرك الشيء في المرآة يده. حركت قدمها ففعل الشيء أمامها الأمر ذاته. إنها هي.. لكن بصورة أخرى، لقد تحولت إلى شيء فيه صفات بشرية وليس ببشر. صرخت بفزع وابتعدت عن العمود، فعاد الشيء في المرآة يتحول إلى صورتها هي. جمدت مكانها ثم تقدّمت بحذر خطوتين تجاه المرآة. كانت تضع إحدى يديها على صدرها وتمدّ الأخرى إلى الأمام، وقبل

أن تلمس المرآة رأت على صفحتها ابتسامة أسنان بارزة يحيط بها شاربان.

بعد أن أفاقت من نومها المضطرب وغادرت سريرها قبل نصف ساعة من وقتها المعتاد، حاولت عبثاً أن تطرد أي صورة رأتها في منامها، وقد عزت أحلامها إلى ما صادفته في الأمس. بعد أن فرغت من حمّامها وجدت نفسها تقف أمام المرآة الكبيرة في حجرتها. كانت تشبه تلك التي رأتها في المنام، ولكن بلون أخضر. ودون أن تفكّر في اسمها الذي نسيته طوال الأمس، عرفت من تذكرها لتفاصيل الحلم الأول والثاني أنها ما تزال لا تذكره.

كان صباحاً كرر ذاته كنسخة عن صباحات العمل السابقة باستثناء شيئين: لا شمس في الحجرة، وعمارة خضراء في الجوار.. «آه.. وشيء ثالث، إني فقدت اسمي».

بقيت تدندن اسمها طوال رحلتها إلى عملها كما لو كانت خائفة أن يضيع مرة أخرى. ثم أخذت تنسج أغنية من تأليف خيالها حوله «ياسمين.. ترالالا.. ياسمين.. أمم آآه.. يا ليل يا عين.. ترالالا».

أحست بوخزة ألم في قدمها التي التوت منذ دقائق، وهي تتعثّر على الدرج إلى حيث أفتاب الذي نطق باسمها، فأخذت تمسّد ألمها بيد وتقود بالأخرى، وتستعيد شريط حوارها مع الحارس الذي كان يتحدّث إنكليزية واضحة بلكنة هندية. عندما قالت له باستغراب «إنها المرة الأولى التي تنطق فيها باسمي»، أجابها بابتسامة لا تكلف فيها «هذا صحيح يا سيدتي».

«ولماذا هذه المرة تحديداً؟»

«لأنها المرة الأولى التي تلقين بتحيّة تذكرين فيها اسمي». وقبل أن تضيف شيئاً، أضاف الهندي ذو القامة القصيرة «لو لم تفعلي لما فعلت، فكلنا يحب أن يخاطب باسمه».

«لماذا؟» سألته بدهشة.

«كي لا يتمزّق العالم الذي نعيش فيه».

«وهل تحول أسماؤنا دون تمزّقه؟».

«نحن لا نتميّز عن الحيوانات بعقولنا، فكل حيّ له عقل يفكّر به. نحن نتميّز بأسمائنا. عندما لا نتنادى بها، ننفصل عن بشريتنا».

«هل انفصلت عن البشرية يوم الأمس إذاً؟» تساءلت في سرّها «وهل هذا ما جعلني أتحول في المنام إلى شيء له ابتسامة فأر وشاربان؟».

وكما لو أُنقذت من هلاك محتّم سألت الحارس «هل تصدّق أني نسيت اسمي طوال الأمس حتى نطقت به أنت؟»

«غريب حقاً» أجاب ثم سألها وهو يعبث بذقنه «هل أزعجك الأمر؟»

«النقل إنه أخافني. فكّرت أني ربما انفصلت عن نفسي وتهت في هذه المدينة».

«نعم نعم، أفهم ذلك، لكن لا بأس، فها قد عاد لك، وسعيد أني ذكرتك به». وفي ابتسامة لطيفة أضاف «لا تدعيه يهرب منك مرة أخرى».

لمحت ياسمين بريقاً في عيني محدّثها لا يحمله حارس يجلس على مقعده ثماني ساعات في اليوم. ودون أن تضيف

شيئاً، مضت في طريقها تحمل شطحات أفكار تتخبّط في جنبات رأسها ككرة في وعاء أجوف.

لم يكن لديها متسع من الوقت، ولا هي أرادت متابعة الحديث مع الحارس النصف أصلع ذي القامة القصيرة، فقد اكتفت بالعثور على ما فقدته. حتى إنها بعد ثوانٍ من مغادرة العمارة نسيت تفاصيل وجهه. لكنها أحسّت بشكل ما أن هذا المدعو أفتاب، المختفي خلف كاونتر متواضع يخفي قامته الهزيلة، يختلف عن الحارسين الآخرين.

انعطفت بسيارتها تجاه مكتبها، وفيما هي مستمرة في الغناء لاسمها كأمّ تغني لوليدها تذكرت شيئاً: في حلمها الأول تعثّرت قدمها اليمنى بالنبتة الصحراوية، وفي الحلم الثاني كانت قدمها اليمنى تعرج وهي تركض هاربة من مواد البناء خلفها، وها هي، منذ قليل، تلوي قدمها اليمنى على الدرج وهي تهرول صعوداً إلى أفتاب، وتساءلت «هل ما زلت أحلم؟».

****

انتصف النهار على ياسمين وهي لم تنته بعد من ثاني اجتماع لها. كان إحساسها بالتوعّك يحول دون قدرتها على الاستماع إلى أحد أو الحديث إليه، فقررت أن تغادر عملها أبكر من المعتاد. لم يكن إحساس التوعّك جسدياً بالكامل، بل هو تبعثر أفكار، ورغبة في الانزواء بعيداً عن الناس. ومع أنه لم تكن لديها رغبة في استرجاع ما مرّ بها، فقد تفاءلت بعودة ياسمين إليها، أي إلى ما قبل العمارة الخضراء، ومن هنا تحديداً داخلها خوف جديد. فقد وجدت أن الأسماء التي تذكرتها، بعد أن نسيت اسمها، قد

بدأت تختفي من ذاكرتها. من تذكرتهم بالأمس، بدأوا ينصرفون كجمع يغادر قاعة كبيرة، لكن الجمع لم يغادر وحده بل أخذ معه شيئاً ثميناً، إنه هوية ياسمين وشخصيّتها. لقد أدركت تلك اللحظة، وعلى نحو ما، أن الأسماء ليست هويتنا، بل هي ألوان تميّز بعضنا من بعض وتقرّبنا، والهوية أعمق من ذلك. إنها هي الغاية من حياتنا، وعلاقاتنا، ووجودنا.

حاولت ما كانت تفعل عكسه بالأمس، أن لا تتذكر. وبعكس ما حدث بالأمس، بدا أن كل ما تذكرته فجأة قد اختفى فجأة. بالأمس اختفى اسمها وظهرت أسماء أخرى. هذا الصباح عاد الاسم، فاختفت الأسماء الأخرى. لكنّ شيئاً غريباً آخر قد حدث. لقد تخلّف اسم واحد عن مغادرة قاعة الذاكرة: «سليم». الرجل الذي كانت قد نسيته قبل العمارة الخضراء وتذكرته بعدها، لم يذهب كباقي الأسماء، وتكرر شعورها بأن عقلها يعمل بعيداً عن إرادتها، مستحضراً عنوة كل تفاصيل حياتها مع «سليم»، وملامحه، كما لو افترقا للتوّ.

عندما التقته أول مرة لفت انتباهها كل شيء فيه. كان حسّ الإنسان العميق لديه يغريها كي تمضي معه إلى آخر الدنيا. حتى روح الدعابة التي أحبّتها فيه كانت دثاراً يخفي ضعف ثقتها بنفسها. وقد أدرك «سليم» ذلك منذ البدايات، فكانت نصيحته المتكررة «أدخلي في نفسك، إنك تسبقين الناس كلهم ولو بخطوة واحدة». إن بقي شيء تذكره له بعد تلك السنوات الأربع فهو عبارته هذه.

في لقائهما الأخير رأته بغير الصورة التي عرفته. كان حزيناً وشاحباً. فكّرت حينها أن عارضاً ألمّ به هو السبب لا بُعدها عنه.

لكنه أخبرها أن عاماً كاملاً بدونها كاد يقضي عليه. لم تصدّقه أول الأمر، لكن عندما رأت محاولاته اليائسة في استعادتها، أدركت أنها انتصرت عليه. أدركت أنها قد ثأرت لنفسها عندما تركها ورحل دون سبب. ها هي ترفضه للمرة المائة دون أن تعطيه سبباً. وها هو بقامته النحيلة ووجهه الشاحب يجثو كالأطفال. لقد أثار منظرها شفقته، وحينها لم تكن قوّة شخصيتها هي ما دفعها إلى رفض عودته فقط، بل قناعتها بأن الشفقة لا تولّد حباً.

في طريقها إلى منزلها، تذكّرت كيف قضت أيامها الطويلة بعد «سليم» تداوي جراحها دونما مساعدة من صديق أو فرد من عائلتها، بما في ذلك شقيقتها الوحيدة التي كانت قد تزوّجت وهاجرت إلى كندا. يومها اكتشفت أن الحبّ كالقتال، يترك وراءه ندباً ولو خرج الإنسان منتصراً. وقد كانت ندوبها كثيرة في هزيمتها وانتصارها.

آمنت بعد حين، أن كليهما قد خسر. من انهزم ومن انتصر. هكذا هو الحبّ الحقيقي، انتصارات، وخسائر، وفي النهاية لا خاسر ولا منتصر. فالحب عندما يموت خسارة كبيرة، وعندما يثمر هو انتصار كبير. في الحالتين، يحتاج إلى إرادة كي يستمر أو ينتهي.

مع أول دمعة نزلت من عين «سليم»، رحلت ولم تره بعدها. ذاك اليوم بكت على صدر أمّها، الذي لم يكن أمامها سواه «أنت من تركته يبتعد، فلمَ تبكين؟» قالت لها. «تعتقدين كالبقية يا أمّي، أن من يتخذ قرار الابتعاد هو الأقل ضرراً. حسن، دعيني

أقولها بصراحة، أنا القتيلة لا هو».

حاولت وهي تقترب من دارها تلك الظهيرة، أن تهرب بعقلها من كل ذكرى تحمل رائحة «سليم». إن نجحت في ذلك لوقت قصير، فإن صورة أيامها الأولى في هذه المدينة، هاربة من وطنها ومنه، دارت في رأسها كفيلم وثائقي عصيّ النسيان.

غريبة لا تعرف أحداً في أيامها الأولى، لم تكن تشعر بشيء محدد سوى قليل من الإثارة في مدينة تفور. لكن بعد أسبوع واحد استطاعت أن ترى حجم الفراغ الذي أحدثه جرحها الهاربة منه.

بعد الأشهر الثلاثة الأولى، بقي الفراغ وحده يملأ فراغها، والرجال الذين التقتهم، كانوا جميعاً أصغر من قامة «سليم».

فيما هي عائدة مبكراً من عملها مرّت بجوار مقهى على شارع الجميرا، تذكّرت أنها اشترت منه ذات يوم شوكولا جميلة. خاطبت نفسها «هل أشتري السوداء أم البيضاء؟ بالعسل أم البندق؟ بنكهة النعناع أم الفانيلا؟» كانت تبذل جهداً كي لا تتذكّر أي شيء. «الشوكولا بمذاق الفانيلا ألذ»... وشبح «سليم» في عقلها يروح ويأتي كمن يتدلى على أرجوحة. «نعم نعم بمذاق الفانيلا..» طردت «سليم»، وإن عاد فستطرده مرّة أخرى، وشدّت على يدها بقوة، وأشغلت ذهنها من جديد «البيضاء ألذ؟» قررت ثم غيّرت رأيها وعادت إلى السوداء، ثم رن هاتفها. كان الاتصال من الرقم ذاته الذي التقطها البارحة، رقم «أنا».

****

أوشكت العمارة الخضراء أن تنتهي في ثاني يوم من بنائها، فكرت ياسمين وهي تنظر أقصى ما استطاعت إلى الأعلى. «أين

وصلت القمة يا ترى؟» لم تستطع أن تحدد ما الذي كان يتحرّك على القمة الشاهقة، أهم عمال يفككون السقالات المعدنية أم ينصبون سقالات جديدة. وهي تدخل بنايتها، ودون أن تجد تبريراً، أحسّت بارتياح مع رؤية الحارس أفتاب يجلس كمتعبّد في محرابه الصغير هادئاً صامتاً. بدا لها يتأمّل شيئاً ما، فلم يكن يحرك جفناً. رأته في جلسته تلك يشبه بوذا الذي يتربّع تمثاله الضخم في المطعم الذي يحمل اسمه في أحد الفنادق المطلّة على المارينا.

اقتربت من الكاونتر الصغير وحقيبة يدها الكبيرة تتدلّى من كتفها، وفي قبضتها اليسرى هاتفها. شعرت وهي تقترب أنها تخترق عزلة قديس يتأمّل. كان الإحساس غريباً، وطاغياً.

«مساء الخير أفتاب».

رفع رأسه بهدوء وردّ تحيّتها بودّ وسأل «أما زالت قدمك تؤلمك؟».

«وكيف عرفت أنها تؤلمني؟».

«رأيتك هذا الصباح تعرجين قليلاً بعد أن غادرتني».

«قدمي بخير. آممم.» بدت تحاول أن تقول شيئاً وهي تنظر إلى موزة صفراء تتوسّط صحناً صغيراً أمامه. «هل رأيت العمارة الخضراء؟» وأشارت بيدها إلى الخارج «العمارة التي بنيت في ليلة واحدة؟».

نهض أفتاب وبدت قامته أطول قليلاً مما تخيّلته «نعم، رأيتها في الصباح».

«لكنها هنا منذ البارحة..؟». قالت باستغراب.

«نحن نرى ما نريد أن نراه فقط».

«هل هو إنسان مثالي أم مجنون؟» تساءلت في داخلها متعجبة من ردّه ثم سألته «ألم تستغرب كيف بنيت في يوم واحد بهذا الارتفاع الشاهق؟».

«غريب فعلاً... لكن».

قاطعته مندفعة كهرولاتها الصباحية «في ليلة واحدة تنشأ عمارة كهذه، هل تصدّق ذلك؟» قالت وهي تشير إلى الخارج مرة أخرى.

«لست أرى عمارة عالية بل أفكاراً بشرية تتطور في هيئة عمارة. تلك التي ترينها ليست سوى أفكارنا نحن.. أحياناً هي أكبر منّا تتحمّله عقولنا» قال بهدوء.

«لم أفهم».

«عندما تنظرين إلى المدينة على أنها الدنيا التي نعيش فيها وطرقاتها هي قراراتنا التي نتخذها على عجل، سترين حينها أن هذه العمارة الخضراء ليست سوى أفكارنا التي تتطور وطموحنا الذي يجهد الجسد والعقل».

لم تفهم ما قصده الهندي النحيل ومضت تسأله غير مكترثة لما قال «هل رأيت كم بلغ ارتفاعها، أكثر من مائة طابق، بل أكثر بكثير».

«نعم.. أكثر بكثير. الإنسان يهرب دوماً إلى الأعلى. لعلّه أدرك الآن أن السماء هي وطنه الحقيقي».

صمتت ياسمين ويدها معلقة في الهواء باتجاه العمارة الخضراء لا تعرف بمَ تجيب. تراءى لها أقتاب في تلك اللحظة

أكبر من جسده. وقبل أن تختم حديثها، أضاف «العمارة هي نحن. هي أنت وأنا. كل ما يصنع الإنسان هو جزء منه، ويشبهه كثيراً. السيارات التي نركبها لها وجهنا نحن، العمارة الخضراء جسدنا، والطرقات أطرافنا. كل ما نصنعه هو تكرار لذاتنا».

«لماذا؟»

«كي لا نكون وحدنا».

«لكنها بناية بشعة».

«ليس كل ما نراه بشعاً هو كذلك بالفعل. الجمال الحقيقي ما نحسّه لا ما نراه. وإنْ قست الأمر على هذه العمارة أو على دبي كلها، فإن جمالها لا يكمن في الطرقات والمباني بل في ما تخلقه لك من أمل لشيء أكبر» قال وهو يهزّ رأسه بلطف وابتسامة صافية.

بقيت صامتة تتفرّس في عينيه مردّدة في نفسها «هو بالتأكيد يختلف عن الحارسين الآخرين» وغادرت إلى شقتها. وضعت حقيبتها على طاولة مطبخها الصغيرة. أخرجت علبة الشوكولا وبدأت تأكل بعقل شارد في ما قاله الحارس الهندي. رنّ الهاتف. فكان «أنا» للمرة الثانية هذا الصباح. لم تجبه في الأولى، ولن تفعل الآن.

بعد لحظات رنّ الهاتف من جديد. إنه هو أيضاً. «يا له من عنيد» قالت، وألقت بالهاتف بعيداً. دخلت إلى حجرة نومها وأطلت من النافذة على العمارة الخضراء «نعم.. أكثر من مائة طابق.. لكن.. هل تشبه جسد إنسان؟». نظرت إلى الأسفل حيث عمود النور مكانه. أقفلت الستائر ونزعت ثيابها واستلقت على

السرير. نامت لأكثر من ساعتين بعمق. لكنها أفاقت قرابة العصر بمزاج مضطرب. استوت جالسة، وبتلقائية أخذت تكرر «ياسمين، ياسمين، ياسمين» وتكورت على نفسها كما لو كانت تحضن اسمها مخافة أن يرحل كما فعل بالأمس. رفعت رأسها إلى الأعلى، ودون أن تدري اغرورقت عيناها وضمّت إليها دبّها الأحمر. بعد نصف ساعة من تنهّدات بالكاد تسمع نهضت إلى الحمّام، وأمام المرآة نظرت إلى وجهها، وبعكس ما توقّعت غابت الهالتان اللتان كانتا حتى الصباح. ندّت عنها ضحكة طفل أعطي حلوى بعد بكاء.

وهي جالسة أمام التلفزيون، نظرت إلى الساعة السوداء، ذات العقرب الوحيد، على الحائط. أحسّت أن الزمن بات أبطأ، وداخلها إحساس النصر الأول ذاته. شعرت ببرد خفيف ولفّت يديها حول جسدها، ثم نهضت وأعدّت فنجان قهوة، وأشعلت سيجارة. عندما ارتشفت قهوتها لم تحسّ بمذاق البن المحروق كما تحبّه بل بمذاق بحر عميق. أحسّت نفسها تغوص كحورية في البحر. لم تر سمكة واحدة في الأعماق لكن الماء كان شفّافاً كقطعة كريستال هائلة. مضت تغوص وتغوص حتى أحسّت بالدنيا تعتم من حولها، فجأة أفاقت على مذاق بن محروق يغطي لسانها.

«هل كنت أحلم مستيقظة؟» سألت نفسها.

رنّ الهاتف قليلاً وصمت، ثم رنّ ثانية. التقطته فوجدت اتصالاً من إحدى صديقاتها، أمّا الثاني فكان من «أنا». لقد حفظت الرقم عن ظهر قلب «يا له من عنيد. إنه أعند من...»

وأمسكت عقلها عن التفكير لحظة، ثم ما لبثت أن نطقت باسمه من جديد: «سليم».

في الثواني التي تلت، غمرتها رائحة البحر الذي غاصت في أعماقه منذ قليل. وبصورة ما رأت فيه ذاكرتها هي والنسيان أمواجه. تمنّت لو لم يقذف البحر سمكته الأخيرة على شاطئ ذاكرتها، لكنه فعل، وألقى بالسمكة ميتة. كانت تلك السمكة «سليم»، أو هكذا تمنّت.



على منظر العمارة الخضراء، فتحت ياسمين نافذة حجرتها، فدخلت نسمة لطيفة لشتاء قادم. أغمضت عينيها قليلاً وهي تمسك بطرفَي الستارة وتسحب هواء منعشاً إلى رئتيها. ثم نظرت إلى الأسفل، فرأت أفتاب يسير باتجاه عمود النور. ودون أن تعلم كيف، وجدت نفسها تهبط في المصعد. لكنها وجدت في بهو البناية أفتاب يجلس مكانه. لم يكن هو إذاً من رأته يسير باتجاه العمود، وسرّها أن تراه يجلس قبالتها. وضعت يديها في جيبي بنطالها كطفلة وتقدّمت تجاهه بهدوء.

نظر إليها وسألها ما لم تتوقّعه «هل أنت خائفة؟»

أربكها سؤاله.

«الخوف عدو يهزمنا بلا قتال، وتلك هزيمة مخزية حقّاً». قال دون أن ينتظر منها جواباً كما لو هو يقرأ أفكارها.

«عندما تكون وحيداً تخاف» نطقت دون أن تعرف لمَ قالت ذلك.

«وهل تعتقدين أن الآخرين يزيلون وحدتنا؟ مخطئة لو

اعتقدت ذلك آنسة ياسمين. أحياناً يكونون هم سببها». علت أفتاب ملامح حكيم وهو يتحدّث «الوحدة تشبه السعادة، كلتاهما تنبع من المصدر ذاته»، وأشار إلى صدره «إنه داخلنا نحن. من لا يكون سعيداً في داخله فلن يسعد الآخرين. من أجل ذلك نحب من يضحكنا ويسلي عنا، لأنه يعوضنا عمّا نعجز عن صنعه في أعماقنا». صمت قليلاً وأضاف «تطلب المرأة القوّة من مصدر ضعفها، إنه الرجل، لكن ليس هو من يزيل وحدتك، ولا أي شخص آخر قادراً على فعل ذلك إنْ لم تتغلبي عليها وحدك».

«كيف لي ذلك؟» سألته في عفوية من تحادث صديقاً تعرفه منذ زمن، فجاءها جوابه أكثر غموضاً منه «لأنك لست وحدك».

«كيف لا أكون وحدي وأنا كذلك منذ زمن، بل منذ خلقت؟».

«أنت إنسان واحد، نعم، لكنك ثلاثة أشياء: جسد وروح وعقل. مع هذه الأشياء التي هي أنت، لن تكوني وحيدة».

أجابته في تردّد «أشعر بكلماتك عظيمة لكني أستصعب فهمها قليلاً».

«الكلمات العظيمة يا سيدتي تقول ما نعرفه بالبديهة. لكننا...» صمت قليلاً وهو يلتقط الموزة التي أمامه «لكننا لا نسمع شيئاً وسط الضجيج. كل شيء له صوت يخبرنا عن ذاته، لكننا لا نسمع حتى صوتنا نحن» وأخذ يمسح الموزة بمنديل أبيض.

شعرت ياسمين أن الرجل ينطق بما يشبه الهذيان، أو أنها هي لا تفهم كلماته، فدفعت بالحوار إلى اتجاه آخر. «هل رأيت عمود الضوء الذي هناك في الزقاق الصغير بجانب العمارة الخضراء؟».

أعاد الموزة إلى مكانها وهي تلمع بلونها الزاهي «العمود الوحيد؟ نعم، أراه كل يوم».

«لماذا وصفته بالوحيد؟».

«لأن كل شيء في الدنيا يبدو وحيداً وهو ليس كذلك. حتى أولئك الذين يحيط الناس بهم، هم في داخلهم يشعرون بالوحدة دون أن يدركوا أنهم ليسوا على ما يعتقدون» وعاد يكرر من جديد في نبرة واعظ «وحدهم الذين يستطيعون أن يصنعوا السعادة في داخلهم ينتصرون على وحدتهم».

نظرت ياسمين تجاه المصعد، وهي تحاول إخفاء ذهول حزين من كلمات أفتاب، وبدت عيناها تلمعان وساد صمت غريب إلا من وقع قدمي ساكن يعبر البهو إلى المصعد. «أفتاب الوحيد وراء مكتبه الصغير، لم يكن وحيداً قط». قالت في سرّها، متمنّية لو استطاعت أن تكون مثله ولو ليوم واحد.

شعرت برغبة في الصعود إلى شقتها. أرادت أن تلقي بنفسها على مخدّتها وتنسى ما حدث معها أو تبكي حتى تغسل كل اضطراب في داخلها. لكنها عوضاً عن ذلك وجدت نفسها تحكي لأفتاب شيئاً عن ماضيها القريب، وتحديداً منذ انتقلت إلى دبي، كما لو هو صديق لها منذ زمن.

عندما وصلت بقصّتها إلى «سليم» كانت أكثر من حشرجة صوت قد نالت منها، وقبل أن تكمل هرولت باتجاه المصعد. فيما هي تنتظر أن يفتح الباب أمامها، تبعها أفتاب في تأنٍّ وقال بصوت أقرب للهمس «إن كنت ترين سليم فرصة قد ضاعت فاعلمي أن الفرص عندما تضيع تخلق فرصاً جديدة وراءها».

أمام باب شقتها أرخت رأسها على الباب وهي تجفّف دموعاً انهمرت غزيرة في المصعد. تلمّست الباب ورأسها مطرق عليه. تحسّسته كما لو كانت تتحسّس رجلاً تعشقه، وتذكّرت قصّتها معه. كان ذلك قبل عامين، عندما تسلّمت رسالة من عملها تخبرها بأنهم في طريقهم لإعادة هيكلة الشركة وبعض مناصبها. فكّرت حينها أن الرسالة ربما عنت الاستغناء عن خدماتها. شعرت بخوف ووحدة لم تعشهما من قبل، ودعت الله، للمرة الألف، أن لا يدعها وحيدة. في الأيام التي تلت، وجدت نفسها تصنع حبيباً من خيال. جسّدته حنوناً وسيماً يودّعها عندما تغادر في الصباح ويكون أول من يستقبلها مساء. أرادته صلباً وثابتاً في حياتها، لا يغدر بها ولا يتخلّى عنها كما فعل «سليم». كان الباب وحده من تنطبق عليه صفات كتلك، صلب وثابت وجميل، فأحبّته وعلقت عليه سلسلة ذهبية اللون. وكم حدّثتها نفسها أن تعاشره بالتمسّح عليه عارية. وقد فعلتها ذات مرة، واستمتعت واستلذت ثم توقّفت. فقد تيقّنت أنها إن استمرت في طقسها الغريب هذا فسينتهي بها الأمر إلى أن تمارس الفعل ذاته مع كل قطعة أثاث في منزلها.

منذ ذلك التاريخ، أصبح الدبّ الأحمر المحظي وحده.

أمام باب شقتها، وبعد حديث البهو مع أفتاب، مسحت بقايا دموعها، وأسرعت تغسل وجهها. أعدّت قهوة بيد مرتعشة، وأشعلت سيجارة مرتعشة، وشرعت تفكر، وقد هدأت قليلاً، في السبب الذي دفعها إلى رواية قصتها لحارس هندي لا شأن له بهمومها ولا تعرف منذ متى هو هناك.

أيّاً كان السبب، فقد سكنها إحساس مريح إذ أخرجت ما بداخلها، وأيضاً إذ وجدت من يشاركها في خوفها وقصّتها، ولو كان حارس عمارتها القصير الأصلع.

«إنه لا يشبه الحارسين الآخرين بل لا يشبه أحداً». قالت تطمئن نفسها بأن من أخبرته شيئاً عن حياتها، شيئاً خاصاً، ليس كالآخرين.

التقطت كتابها الذي تقرأ فيه منذ شهر. قرأت بعض فقراته، وبشكل ما وجدت نفسها تقرأ في أفكار أفتاب، وسرحت في البعيد.

استرخت وأحسّت بصفاء يتسلّل إلى جسدها. أخذ الصفاء يزداد لا تعكره ذكرى قديمة أو حزينة. أحسّت بنور بعيد في داخلها، ومع النور صوت كأنه ينطق باسمها. تمدّدت على الأريكة بهدوء كمن لا تريد للصوت أن ينقطع وللنور أن يطفأ. كان الكتاب لا يزال في يدها تحمله بابتسامة راضية وتضمّه إلى صدرها. لكن ما لبث كل شيء أن اختفى. نهضت تتلفت كمن تبحث عن شيء كان معها، وسريعاً أدركت أن أحلامها تلك قد تقودها إلى حافة جنون كارثي أو تغيّر جميل في حياتها. سكنت وأسدلت جفنيها وعادت تتمدد على الأريكة. فكرت في كلمات أفتاب وتمتمت «أنا في حاجة إلى الهدوء. أنا في حاجة إلى إجازة» غفت وسقط الكتاب من يدها.

قطعت إغفاءتها رنّة خفيفة من هاتفها الجوال. كانت رسالة من صديقة تسأل إن كان بالإمكان أن تلتقيا في ممشى أبراج شاطئ جميرا في السابعة مساء. نظرت إلى ساعتها فكانت تشير

إلى الرابعة. كتبت لصديقتها بالإيجاب. وقبل أن ترسل ردّها أتاها اتصال رابع من «أنا» هذا اليوم، وتجاهلته.

****

على أريكتها متمددة، حاولت أن تعود إلى إغفاءتها، لكن شيئاً في داخلها أبقاها مستيقظة. انتقلت إلى حجرة نومها وتقلّبت ساعة كاملة مع أفكار تأتي حيناً وتختفي.

أخذت تفكّر في كلمات أفتاب، واتصال «أنا»، وتساءلت ما القاسم بينهما؟

لفت «أنا» نظرها عندما نسيت اسمها. اسمها الذي أعاده أفتاب. هكذا اعتقدت دون أن تجد مبرراً لما تعتقده أن أفتاب هو من أعاد اسمها إليها.

«لكن لماذا لم أرد على أنا؟» تساءلت وهي تقلّب جسمها تجاه نافذتها، تنظر من بين شقّ الستارة إلى العمارة الخضراء. التقطت هاتفها من على الكومودينو وأخذت تنظر في الرقم. «لماذا لم أرد على الاتصال؟» سألت نفسها من جديد. فكّرت أن تتصل هي، وسريعاً عدلت عن الفكرة. زفرت، ثم أغمضت عينيها وأحسّت أنها تنام. غفت لنصف ساعة ثم نهضت خائفة، فقد بدا أنها رأت في منامها شيئاً قد رأته من قبل، أو قريباً منه. ليس العمارة الخضراء، ولا «سليم» بل هاتف جوال يرقص على قدمين وهي ترقص معه، تحت عمود النور الذي كان له ضوء يشعّ بقوّة قبل أن يخفت تدريجاً، ويتحوّل إلى الأخضر. أخذت هيئة الهاتف الذي يراقصها تتحول إلى كائن له ذيل طويل وفروة بنّية، ابتعدت عنه بفزع وأطلقت صرخة.

كانت أنفاسها تعلو وتهبط عندما استوت جالسة على سريرها، وتصالب يديها على صدرها. نظرت إلى الساعة فكانت تشير إلى الخامسة. نهضت ولبست بنطالاً رياضياً وبلوزة صفراء بلون الموزة التي أمام أفتاب.

كان يجلس مكانه عندما عبرت أمامه مهرولةً إلى خارج عمارتها حتى وقفت قبالة عمود النور. ومع أن ضياء الشمس كان يغمر كل شيء في تلك الساعة، فقد كان العمود، للغرابة، مضاء. لأول مرة ترى ضوءه في هذا الوقت المبكر. شعرت بالضوء يتجسّد أمامها كما العمود ذاته. تلمّسته كمن تتأكّد من وجوده. أطبقت جفنيها ورفعت رأسها إلى السماء. بقيت لأقل من دقيقة في وقفتها تلك، لكنها عندما أنزلت رأسها وفتحت عينيها رأت نفسها على الألواح الزجاجية للعمارة الخضراء أمام العمود، كما في الحلم تماماً. تراجعت إلى الوراء خطوة خطوة، وهرولت تجاه بنايتها.

صعدت الدرجات الأربع واقتربت منه. أحسّت أثناء اقترابها أن العالم لا يوجد فيه سوى هي والعمارة الخضراء والحارس الهندي الذي أمامها. لم ينظر إليها، وعوضاً عن ذلك رأته ينظر ثابتاً إلى موزته الصفراء أو ربما شيء آخر. عندما وقفت أمامه مباشرة نظر إليها وابتسم.

«ألا يزال العمود مكانه؟» سألها.

لم تتوقّع سؤاله، واستغربت كيف عرف أنها كانت هناك. قالت «العمارة انتهت، وهو لا يزال مكانه». صمتت قليلاً ثم تابعت «أحبّ هذا العمود».

«وهو يحبّك بالمثل».

نظرت إليه في استغراب ومضى يقول «كل ما تحبّينه سيحبّك».

سألته «وهل يملك الجماد إحساس البشر؟»

«الحبّ وحده يحيل الجماد إلى كائن حيّ» قال وتابع في هدوئه المعتاد «لو وضعت هاتفك على طاولة وأقفلت رنينه وجعلته يهتزّ فقط، لوجدت أنه يتحرّك باتجاهك أنت عند أي اتصال. هل جربت ذلك من قبل؟».

«لا، ولم ألاحظ ذلك أيضاً».

«هذا صحيح، لأن الأمر يتوقّف على درجة محبّتك لهاتفك في تلك اللحظة». ومضى أفتاب يشرح أكثر «عندما كنت في قريتي الصغيرة، كنا نسكن داراً متواضعة. كانت صغيرة على عددنا الكبير. لكننا أحببناها. عرض مستثمر أن يشتريها ليضمّها إلى أرض أخرى بجوارها من أجل مشروع تجاري، لكن والدي رفض أن يبيع رغم حاجتنا إلى المال ودار أكبر منها. فقد كانت عزيزة عليه. عندما توفيت أمّي بدأ أبي يكره الدار لأنها تذكره بها، فراحت أعراض غريبة تظهر لم نألفها من قبل، فتارة ينكسر باب، وتارة تتحطّم نافذة. حتى المياه بدأت تتسرب هنا وهناك. هل تعلمين لماذا؟ لم تكن الدار قد هرمت، بل إنها بدأت تكره أبي كما بدأ هو يكرهها».

قلبت ياسمين شفتها تعجّباً من القصة، وقالت «أحياناً... أحياناً أشعر أن الحب وهم لا وجود له؟»

«ما لا نرى وجوده لا ينفي وجوده. كما أن لكل ضوء ظلاً

يدلّ عليه، كما هو الحب تدلّ إليه فرص لا تنتهي».

«هل تعتقد حقاً أن الفرص لا تنتهي؟» سألته.

«لا يمكن أن تنتهي ما دامت هنالك حياة على الأرض، لأن الحياة نفسها فرصة يتكرر عليها إنسان وراء آخر». ثم سألها «أنت تعيشين وحدك أليس كذلك؟».

«نعم» أجابت ثم أصغت باهتمام إلى ما سيقول.

«هل ترين فرصتك في المال أم في تكوين عائلة لك؟».

«جني المال سهل إن قارنت الأمر بالعثور على الرجل المناسب أولاً».

«إذاً ستأتيك الفرصة لتحققي ما تريدين».

«لعلّي قد عشت التجربة، بشكل مختلف ربما، ولست واثقة إنْ كنت سأعيش تجربة أخرى بذات القدر من السعادة وبلا ألم».

«إنْ كنت تقصدين الحب، فستحبّين مرة أخرى، وسيكون حبّك أعظم؟» قال في نبرة واثقة.

«ما الذي يجعلك تؤمن بذلك؟»

«لأن الخيبات الكبيرة تخفي وراءها فرصاً عظيمة».

«إذاً لنقل إن الفرص تهرب مني».

هزّ رأسه بابتسامة صافية «هي لا تهرب ولا تغادر مكانها بل نحن من يفعل». نظر إلى ما وراء مدخل البهو وقال «لا يمكن للقلب الحيّ أن يبقى خاوياً».

«الساعة لا تسير إلى الوراء. وقلب الصبا يصبح أكثر قسوة مع الأيام. إنه كالعجينة عندما تيبس فتأبى الالتصاق بعجينة أخرى».

هزّ رأسه نافياً ثم وضع يده على قلبه وقال «ستبقى العجينة طرية ولو كنا نحتضر».

ابتسمت وسألته «هل أصارحك بأمر؟ كثيراً ما أشعر بالندم على ما أضعت من حياتي، ولو عاد بي الزمن إلى الوراء لكان الوضع مختلفاً على نحو ما».

«ربما يكون مختلفاً، لكنك لن تعرفي أبداً في أي اتجاه». قال ثم أضاف بعد برهة صمت «نحن نندم على أشياء كثيرة فعلناها. لو فكرنا لحظة لوجدنا أن أفضل ما فعلناه هو ما فعلناه. ولو عاد الأمس، لاتخذنا القرار ذاته الذي نندم عليه اليوم».

«ألا تؤمن بأن الندم قد يجعلنا أكثر حذراً وحكمة؟».

«إن الشفقة على الذات من أكبر التعاسات». قال وهو ينظر إليها، ثم مضى يقول بملامح زاهد «إن فرص يوم لم يأت بعد هي أكبر من تلك التي نتباكى على ضياعها، لكننا لا ندعها تأتي، هل تعرفين لماذا؟ لأننا لا نعرف كيف». صمت لحظة وهو ينظر إلى عينيها بابتسامة مشرقة وسألها «هل تعرفين أنت كيف الطريق إلى ذلك؟».

هزّت رأسها نافيةً «أخبرني أيّها الصديق الحكيم، كيف».

أخرج من درج صغير قصاصة كتب عليها شيئاً بخط إنكليزي جميل. طوى القصاصة ووضعها في راحة يدها «كلما داخلك يأس اقرئي ما كتبت.. اقرئيه جيّداً».

أطبقت ياسمين يمناها على الورقة الصغيرة وسألته دون أن تنظر إلى عينيه «هل أنت متزوج؟»

«نعم».

«هل تعتقد أن الزواج يحقّق السعادة؟».

«حسن.. لقد تزوّجت متأخراً.. متأخراً بعض الشيء. ساقتني شقوة الشباب إلى الطيش والعبث. فيما بعد وجدت أنك لن تجدي مطعماً واحداً في العالم له طاولة عليها مقعد واحد فقط».

كانت ياسمين تستمع باهتمام إلى ما يقوله الهندي القصير أمامها. وهي إنْ كانت قد شعرت بمدى اختلافه عن الآخرين منذ اللقاء الأول، فقد تبدّى لها الرجل الآن في مرتبة معلّم خبر الحياة أكثر منها، بل أكثر من كل من قابلتهم في حياتها. أحست لحظتها أنها في حاجة لمعلّم مثله، لا يعرف كثيرون قدره. حتى هي نفسها لم تكن تعرف، وكثيراً ما تجاهلت إلقاء تحيّة عليه شأن الآخرين.

كانت لا تزال مطبقة على القصاصة الصغيرة وهي واقفة أمامه. وعندما حاولت أن تفتح يدها لامس بأطراف أصابعه يدها «فقط عندما تكونين وحدك».

نظرت إليه وهي تعود خطوة إلى الوراء قبل أن تولي وجهها نحو المصعد وتدلف إليه. أبقت يدها مطبقة كما هي. شعرت أن أفتاب أسكن تعويذة ما في راحتها. فور أن أصبحت في شقتها، أسندت ظهرها إلى الباب، وفتحت القصاصة.

****

صدرت عنها ضحكات خفيفة متتالية «مجنون هذا الأفتاب»، قالت وهي تعيد قراءة ما كتب «هل هذه تعويذته؟» وأعادت قراءة الورقة للمرة الخامسة بصوت مرتفع «اسمعي الصوت في

داخلك». طوتها وأبقتها في يدها وهي تجلس وسط سكون عجيب على أريكتها وتنظر إلى الساعة ذات العقرب الواحد فكّرت أيّ سرّ يمكن أن تحمله تلك الكلمات. عبثاً حاولت أن تعثر على شيء تفسّر به حكمة الحارس الهندي، لكن أحست أن كل ما قاله لها قد غادر رأسها كأن لم تسمعه. في النصف ساعة التالية وجدت نفسها تكرر نصف الجمل التي قالها وتردّد بعضها بلا توقّف، أدركت عندها أن هذا الأفتاب يزرع بتلات أفكار في عقلها قد لا ترى للوهلة الأولى، لكنها ستنمو في وقت ما.

أسكنت القصاصة بطن أحد كتبها ووضعته على طاولة صالونها الأرجوانية. نهضت تبدّل ثيابها لتلاقي صديقتها. لم تشغلها القصاصة بل الحوار الذي دار، مجتهدة في الربط بين حياتها وقصتها القديمة وما يقوله حكيمها الهندي. عندما سألت نفسها وهي مشغولة بارتداء ثيابها، عن سبب هذا الانفتاح في الحوار معه، لم يكن الجواب هو ما يطلقه من أفكار بناء على تجارب شخصية لا دخل لها بها، بل شيء آخر، إنه إحساسها بالأمل الذي يزرعه في نفسها، كجنين يكبر في رحم أمّه.

اتصلت صديقتها بعد السادسة بقليل «ما رأيك لو التقينا في منطقة البرج؟». سألتها.

«لا مانع».

«الجو جميل وبإمكاننا الجلوس في الخارج ومشاهدة النوافير. هل رأيتها من قبل؟».

استغربت ياسمين هذا التغيير في المكان. فقد كان من المقرر أن تجتمعا في ممشى أبراج شاطئ جميرا، ثم غيّرت صديقتها

المكان في اللحظة الأخيرة. «ربما كان الخيار الثاني أفضل.. نعم.. ربما»، لكن شيئاً في داخلها حدّثها بخلاف ذلك. صرفت أي أسئلة من رأسها، ومضت إلى موعدها. عندما اجتازت مدخل العمارة لم يكن أفتاب يجلس هناك، بل حارس آخر. سألت عنه، فأخبرها أن ساعات عمله انتهت لهذا اليوم. شكرته ومضت إلى موعدها.

جلست الصديقتان في مقهى يطل على بحيرة البرج. تحادثتا في أمور شتى. لم تبدأ ياسمين بقصّتها، وانتظرت تسمع قصة صديقتها وعلاقتها المضطربة بزوجها. حتى في هذه لم تكن ياسمين مصغية بكل حواسها وهي تنظر من وقت لآخر إلى ـ برج خليفة ـ الضخم أمامها، وإنْ بقيت تومئ من وقت لآخر معطية انطباعاً بإنصات يليق بهموم صديقتها.

بعد المقهى سارت الصديقتان على أطراف البحيرة قبل أن تصدح في الفضاء موسيقى تمايلت على أنغامها نوافير البحيرة في منظر بديع. بدت النوافير كراقصة شرقية تتكرر مئات المرات، ثم بدا لها أنها غجرية فهندية فصينية. بدت المياه الراقصة أمامها كما لو أنها تخاطب العالم وتتحدّث لغاته. بدت مليئة بالحياة. «جميلة هي المياه. ولأننا نحبها، فقد تحولت إلى كائن حيّ». قالت ياسمين في سرّها، دون أن تعي أنها تردد كلمات أفتاب «الحب يحيل الجماد إلى كائن حي».

بعد أن توقّف استعراض المياه، وفيما كانت ذرّاتها الأخيرة تتحرّك مع نسمة هواء منعشة باتجاه البرج العملاق، رفعت رأسها ونظرت إلى ناطحة السحاب أمامها. تفرّست فيها من

أسفلها إلى قمّتها، وشعرت برعشة. «الناس يحبّون الأعلى كأنما قد أدركوا أن السماء وطنهم الحقيقي». ودون أن تعرف أهي مأسورة بشموخ البرج أم خائفة منه، صرفت نظرها بعيداً عنه، وفي أول مناسبة، اعتذرت من صديقتها وغادرت على عجل بحجّة عمل ينتظرها في المنزل.

لا شيء ينتظرها في المنزل، ولم تذهب إليه، وعوضاً عن ذلك أخذت تذرع بعض طرقات المدينة متأملة عمائرها القديمة منها والجديدة. بدت العمائر تتنافس على جذب الأنظار إليها. إنها ترقص كالمياه، لكنها تستعيض عن الماء بأضواء تشعّ من أطرافها. «هل هي كائنات حيّة، وهل العمارة الخضراء كائن حي؟»، تساءلت وهي تقود بلا اتجاه. بعد نصف ساعة وجدت نفسها قريبة من المركز التجاري الذي اعتادته في شارع جميرا، المكان الذي اقتحم فيه «أنا» هاتفها أول مرة. أهي الصدفة ما قادها إلى هناك؟ لم تعلم، لكن صوتاً في نفسها قال «لا بدّ أنه هناك؟». وبصورة غامضة فكّرت لو اتصلت بـ «أنا» الذي تجاهلته منذ البارحة.

حملت رائحة البحر التي انسابت إلى أنفها وهي تدخل الباب الرئيسي للمركز، صورة «سليم»، السمكة الميتة، كما لو أنه والبحر توأمان.

ورغم عقلها الذي أعيته تحليلات لا تنتهي، فقد حاولت أن تبحث من جديد عن الشيء الذي يربط بين «سليم» وذاكرتها والعمارة الخضراء. شيء يجمع بينهم. العمارة الخضراء غيّبت الذاكرة وأحضرت «سليم». العمارة الخضراء لم تعد الذاكرة،

وبقي «سليم». واستنتجت بناءً على ذلك أن «سليم» مجرّد وهم لا بدّ أن ينتهي.

جلست في مقهى الطابق السفلي وفي يدها قهوتها. لفت انتباهها أن كل من يجلس وحيداً هو على الأغلب يتحدّث في هاتفه. كانت خلاصة تحليلها أن أولئك الذين يجلسون وحدهم لا يطيقون وحدتهم ولو كان العالم حولهم. «لكن عمّاذا يتحدّثون يا ترى؟» لا شيء مهمّ على الأرجح. وبصورة ما أخذت تحسب مدة اتصال افتراضي مع عميل يريد شراء عقار. البيع والشراء أهم عملية يقوم بها البشر في حياتهم وأكثرها بساطة وتعقيداً في الوقت ذاته، مع ذلك لا يتطلّب إنجاز صفقة عقارية عبر الهاتف أكثر من دقيقتين إلى ثلاث لإتمامها.

وضعت جوالها وسط طاولتها تماماً، وشرعت تفكّر في الزمن، وتتأمل الناس يهرولون. فجأة أتاها اتصال واهتزّ هاتفها. تأملت اهتزازاته فوجدتها تدفعه إلى الناحية الأخرى بعيداً عنها. كانت المتصلة زميلة تؤكد على موعد صباحي مع عميل «كل شيء سيكون على ما يرام»، قالت وأنهت المكالمة سريعاً كما لو هي تترقّب اتصالاً أكثر أهمية.

فكّرت أن تتجوّل لشراء بعض الثياب من الحوانيت المجاورة. لكنها، قبل أن تفعل ذلك، وجدت نفسها تتصل بـ «أنا». رنّة، اثنتان، وأغلقت مع الثالثة بارتباك طفل ارتكب خطأ. نهضت وسارت على عجل، كعادتها، ودخلت إلى المتجر الأول. بقيت تقلّب بعض الملابس أمامها متغاضية عن ارتجافة خفيفة في يدها. غادرت إلى متجر آخر، فثالث، لم يعجبها شيء

لأنها ما كانت تفكر في شراء شيء بل تتلهّى بما يصرفها عن التفكير بهاتفها وما يحدث معها. بعد أقل من نصف ساعة عادت إلى طاولتها التي كانت عليها. وضعت هاتفها وسط الطاولة، وبحثت في حقيبة يدها عن الكتاب الذي كانت تقرأ فيه منذ شهر. كثيرة هي كتبها التي تتحدّث عن دواخل النفس. بعضها لا تكمل قراءته عندما تشعر أنها تزيد الحياة تعقيداً على بساطتها. وبعضها الآخر تتوقّف عند بدايته إنْ شعرت أن الكاتب يملي أفكاراً تعلم أنه لا يؤمن بها، أو لا يطبّقها، مثل تلك التي تنصح الناس كيف يصبحون أغنياء، أو كيف يكونون محبوبين. إذ يحدثها يقينها بأن المفلسين وحدهم، والفاشلين وحدهم من يكتبون كتباً كهذه.

التقطت ما كانت تبحث عنه وهي تفكّر بأنه لو قدر للحارس الهندي أفتاب أن يكتب أفكاره، لكانت أفضل من تلك الكتب. قالت في نفسها وصلّبت رجليها وشرعت تقرأ. ما لبثت أن شعرت باهتزازة خفيفة على سطح طاولتها تبعتها رنّة اتصال. هذه المرة رأت الهاتف يهتّز باتجاهها. وقبل أن تعرف من المتصل أدركت أنه «أنا»، فقد كانت في داخلها تنتظره.

هذه المرة أجابته.

****

«العمل في مجال البناء أمر شاق. فهو يتطلّب جولات ميدانية لمواقع متباعدة وبعيدة. يزداد الوضع سوءاً في الصيف عندما تصبح الحرارة لا تطاق وتشعر بالرطوبة كأن ماء البحر قد صُبّ على جسدك».

هذا ما عرفته خلال محادثتها الهاتفية الأولى مع «أنا» الذي يعمل مهندساً معمارياً لدى شركة كبرى. استغربت في البدء كيف تركته يتحدّث كما لو أنها تعرفه من قبل. فبعد أن عرّفها باسمه وجنسيته، بدا لها أنه واثق بنفسه إلى الدرجة التي افترض فيها أن الطرف الآخر سيبادله الرأي والأفكار من المحادثة الأولى.

أعجبتها ثقته العالية بذاته، وأسلوب حديثه الذي يبدو ارتجالياً وصادقاً. لمست في محادثتهما الأولى أشياء في شخصه تفتقدها. لم يسألها عن سبب تجاهل اتصالاته السابقة، ولا لمَ أجابته الآن، بل اكتفى بأن عرّف بنفسه وانطلق يتحدّث.

استمرّت المكالمة ربع ساعة، أو أكثر بقليل، عرفت فيها الكثير عن «أنا». وكم آثرت لو أظهر محدّثها شيئاً من الغموض عن شخصه، بخلاف توثّبه واندفاعه اللذين عرفتهما في كثير من الرجال قبله، فكانت العلاقة غالباً ما تنتهي سريعاً، أو بعد حين.

رغم ما تبديه من توتّر وسرعة حركة وتنقّل أثناء عملها، لم تكن لتندفع تجاه شخص ولو أعجبها، آخذة الأمور بروّية. فقد كانت ترى أن الرغبات عندما تنضج ببطء تصبح أشهى وأكثر ديمومة. من أجل ذلك دفعتها حماسته الزائدة إلى التراجع خطوة إلى الوراء عندما سألها إنْ كان بالإمكان أن يلتقيا.

«سنبقى على تواصل، وقد يأتي يوم نلتقي فيه».

«يوم! هل معنى هذا أننا قد لا نلتقي؟».

«سنرى».

«هل أعاود الاتصال بك أم تتصلين أنت بي؟».

«سأتصل أنا بك».

«لقد تركتني أتحدّث وحدي ولم تخبريني شيئاً عنك».

«ستعرف فيما بعد».

هكذا انتهت المكالمة الأولى. هو منفتح منطلق، وهي متحفّظة باردة كلوح ثلج.

كان أول ما خطر في بالها بعد أن أنهت محادثتها هو سؤالها المكرر ذاته «وماذا بعد؟».

لم يكن واضحاً لها حتى تلك اللحظة إلى من يتوجّه السؤال، إليها هي أم إلى «أنا»، لكنها فكرت بأي حال أن «أنا» لا يعرف شيئاً عنها بعد، ولا يفترض بها هي، مع هذا القدر من النضج، أن تفكر في ما هو أبعد من مجرّد محادثة عادية مع شخص لا تعرفه ولم تلتقِه. مضت إلى ما هو أبعد من ذلك عندما شعرت بأنه ما كان ينبغي لها الاتصال به، وفكرت في لحظة أنها ارتكبت خطأً بإعطاء أهمية لمراهق يطارد الفتيات عبر هاتف ورسائل بلوتووث. لقد كانت بذرة ندم جديدة تنمو بداخلها دونما داعٍ، يدفعها إلى ذلك إيمان غريب بأن علاقة صحيحة وقوية لن تنشأ بطريقة كهذه.

«لكن، كيف يفترض في العلاقات الصحيحة أن تنشأ إذاً؟» سألت نفسها وهي تسترجع بعض ما قاله «أنا» الواثق بنفسه حتى الغرور. «نعم.. مغرور». ولاح لها أنها عرفته قبل أن تراه، وعندما حاولت عبثاً تخيّل شكله على عجل، وجدته يبتعد قليلاً عن تلك الصورة التي تسم المراهقين.

أيّاً يكن الوضع، فقد قدرت أن الحكمة تقتضي أن لا تتصل به بعد الآن، فهي لا تريد لوحدتها أن تدفعها باتجاه خاطئ، كما أن «سليم» الذي بدا في لحظة كسمكة ميتة لا بد أن يتحلل

إلى العدم أولاً، أو يعود إلى الذاكرة القديمة التي أتى منها، ويغلق عليه ألف باب.

ربما استغرق ذلك وقتاً، و«أنا» المندفع قد لا يناسب المرحلة. هكذا فكّرت وهي تقود عائدة باتجاه بيتها، وتوالت أسئلتها «لماذا هو مندفع هكذا؟ من أي شيء هارب، وما الذي يخاف أن يفوته؟» وخمّنت، أنه، مثلها، خائف أن تضيع فرصة ما في زمن يهرول.

«ماذا قال اسمه؟ عمر، عامر؟». تمتمت عدة أسماء، لكنها لم تكن في حاجة إلى دوّامة أخرى، واكتفت بإطلاق اسم «أنا» عليه كلما عنّ لذاكرتها. ومع أنها طلبت أن لا يتصل بها وينتظر اتصالها هي، فقد كانت شبه متيقّنة أنه لن ينتظر، وقريباً سيتصل.

لم تكن تعلم حتى تلك اللحظة ما سيحدثه هذا الغريب في حياتها، رغم اندفاعته، ورغم شبح «سليم» الذي يطلّ بين حين وآخر. لكنها، منذ تلك الليلة، ستفكر كثيراً في صاحب الصوت الرخيم الذي تعرّفت إليه بخطأ من هاتفها الجوّال.

في المساء، أوقفت سيارتها في موقفها المعتاد أمام بنايتها، وبنظرة خاطفة على العمارة الخضراء رأتها وقد شُغلت بالسكان من طوابقها السفلى حتى القمة. «هل اقترب ذلك الذي في القمة من وطنه الحقيقي؟»، سألت في تهكّم، ودخلت بنايتها.

كان الحارس الآخر يجلس مكانه خلف الكاونتر عندما حيّته ياسمين وسألته عن أفتاب. قرأت ملامح استغراب على محيّا الحارس وهو يقول لها «إنه سيكون هنا في الثامنة صباحاً»، لكنه

أخبرها أنه سيتصل به إن أرادته في أمر ملحّ، فهو يسكن حجرة خُصّصت للحرّاس خلف البناية. لم تكن ياسمين تعرف أن أفتاب يسكن هنا.

«لا بأس، سأراه صباحاً». ومضت باتجاه المصعد، لكنها، قبل أن تصل إليه، استدارت إلى الحارس «أين قلت يسكن أفتاب؟». وأخذها إلى خلف البناية. كان أفتاب هناك على كرسي خشبي قديم، يضع قرب أذنه مذياعاً قديماً كبيراً. بدا أنه يصغي باهتمام إلى شيء ما. لم يتحرك من مكانه عندما رآها أمامه واكتفى بتحيتها بابتسامة. بقي كذلك دقيقة يستمع بإنصات إلى مذياعه قبل أن يضعه جانباً وينهض مرحّباً بزائرته.

«هل تسكن وحدك هنا؟».

«هي حجرة أتقاسمها مع زميلي. إنها كبيرة ومريحة، هكذا أراها على الأقل».

كان الباب نصف مفتوح، فاستطاعت ياسمين أن ترى الحجرة التي يراها أفتاب كبيرة. قدّرت أنها لا تزيد على ثلاثة أمتار طولاً وعرضاً. أي بحجم حجرة نومها التي ترى أن الجحر الصغير أكبر منها.

فيما هي تنظر إلى حجرته سألها «هل قرأت القصاصة؟».

هزّت رأسها وقالت بما يشبه الهمس «حاولت أن أسمع الصوت الذي أخبرتني عنه».

بقي صامتاً واكتفى بهزّ رأسه.

«لكني لم أسمع شيئاً».

انفرجت شفتاه عن ابتسامة كبيرة وقال «أعلم ذلك، إذ كيف ستسمعين وأنت تركضين؟»، وتابع في وقار رجل حكيم «لا بد أن تتوقفي عن الركض ولو قليلاً. الحياة تهبنا الفرص كي نستمتع بها. ولا يحدث ذلك وأنت تركضين. عندما تهدأ نفسك، وتبدئين برؤية الجمال من حولك، سيأتي الصوت».

«كل الناس يهرولون ولست وحدي من يفعل ذلك. أنت جالس هنا أيها الرجل الحكيم، ولعلّك لا ترى ما يجري خلف الباب الزجاجي للعمارة».

«هؤلاء يبحثون عن فرصهم بالمثل، لكنهم يرونها في المال وحده دون أن يعلموا أن شهوة المال تمتصّ رحيق العقل حتى يذبل؟».

«ألا تعتقد أنهم أسرى شيء من الماضي وأن الخوف من القادم هو ما يدفعهم لذلك لا المال؟».

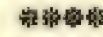
«ربما، فأحياناً يكون النظر إلى الماضي طريقة مثلى لرؤية المستقبل». نهض عن مقعده وتقدّم خطوة باتجاهها «لكن بالنسبة لك فإن وحدتك هي ما تجعلك خائفة يا سيدتي. وذلك للحقّ أمر محزن».

برقت عيناها وهي تنظر إليه «لست أريد أن أتألم مرة أخرى. هذا كل ما في الأمر. لا أريد أن أظلم ذاتي أو أظلم أحداً معي».

«الإحساس بالعدل معطى للإنسان كي يحكم به على نفسه لا على الآخرين. وما دمت تملكين هذا الإحساس لن ترتكبي خطيئة الظلم».

بدا لها أن أفتاب يحرّضها على خوض تجربة جديدة، كان سهلاً عليه أن يقرأ في عينيها كم هي في حاجة لآخر يكون معها. وتساءلت في صمت وهي تقف قبالته إنْ كان ينبغي أن

تؤمن بكل ما يقوله حارس العمارة الهندي القصير هذا. لكن كيف عرف أن هناك قادماً إلى حياتها؟ «لعلّه يقرأ الأرواح أو العيون» فكرت وهي تراه يعود إلى كرسيه الخشبي ويرفع المذياع حتى أذنه. شعرت أنه أراد للحوار أن ينتهي، فأدركها خجل أن اخترقت خلوة الرجل في ساعة راحته، حيّته مرة أخرى وسارت باتجاه مدخل العمارة وهي تعيد النظر إلى غرفته الصغيرة، الصغيرة بحجم جحر. فجأة توقّفت وعادت تقف قبالته وسألته «ما تفسير الفأرة في الحلم؟»



لم يغمض لها جفن تلك الليلة وهي تفكر في حوارها مع أفتاب، وتفسيره لحلمها الذي تكرر. تارة تصبح فأرة، وأخرى تراقص فأراً. الفئران ليست محمودة في الحلم. هذا ما كانت تعتقده قبل أن تسأل أفتاب أو تقرأ أيّ كتاب تفسير.

«لكل أمّة ثقافة تفسر بها أحلامها فيتنوّع التفسير بتنوع الثقافة. ربما عنت الفأرة شيئاً جميلاً لدى البعض، وربما... وربما هي امرأة فاسدة»، قال أفتاب فيما ندّت عنها صرخة مكتومة ووضعت يدها على فمها، وتابع الحارس الهندي «لكنك لست كذلك يا سيّدتي».

«ما تفسير الحلم إذاً؟». سألته في ارتباك.

«الواقع هو الذي يفسّر حلمنا، وليس حلمنا هو الذي يفسّر الواقع. فعندما نمر بفترة عصيبة فإن تجربتنا تلك هي التي تصنع ما نراه في مناماتنا، وليست الأحلام».

سرحت قليلاً وهي تردّد عبارته الأخيرة. ثم قالت «عندما رأيت العمارة الخضراء وأنا في شقّتي الصغيرة نسيت اسمي، أحسست أني قد فقدت هويّتي، وعادت لي ذكرى مؤلمة». وسألته «هل قادتني تلك التجربة العصيبة إلى ما حلمت به؟»

«هناك ما هو أهم من ذلك» أجاب «إنه إحساسك بأن الإنسان في داخلك قد اختفى. الفأر يحمل صفات الإنسان لكنه ليس إنساناً. هو يأكل مثلنا ويمرض مثلنا، ومن أجل ذلك نخضعه لتجاربنا. نحن اليوم نجرب بعضنا بعضاً لعدم ثقتنا بأحد. عندما يمتلئ الفأر بالمشاعر، يصبح هو نفسه إنساناً، ونصبح نحن فئراناً عندما نفقد هويتنا البشرية. لكن..»..

«لكن ماذا؟».

«أنت لست فأرة، أنت ياسمين، ولتكوني كذلك يجب أن تؤمني بقدرتك على صنع حياتك التي تريدين».

«كيف؟».

«في داخلك خوف وندم. نحن نبحث عن حلول لمشاكلنا باستخدام العقل وحده. لكن العقل خائن أحياناً. مشاعرنا يجب أن تشترك في صنع قراراتنا. وكثيراً ما كانت المشاعر أكثر صدقاً من العقل. تذكّري ما قلته لك كيف يحيل الحب الجماد إلى كائن حيّ. تذكّري الهاتف عندما يهتزّ إلى أين يذهب. هذا ما حدث معك. عندما رأيت العمارة الخضراء لم تحبّيها فلم تحبّك هي، بل أصبحت مصدر رعب أفقدك اسمك. اعتقدت حينها أن هويتك البشرية قد ضاعت. ليس الإسم هو الهويّة، ولا هو الانتماء إلى وطن، إذ كلنا من أرض واحدة، الهويّة ليست هي

عائلتنا، فكل الناس عائلة واحدة، وليست هي الدين، لأن الدين يصنعه التاريخ أكثر ممّا هي السماء تفعل. الهويّة يا سيّدتي تكمن في حقيقة واحدة: حبّ الأشياء في داخلنا ومن حولنا. عندما تحبّين المكان الذي أنت فيه فهو هويّتك، عندما تحبّين دينك فهو هويّتك، عندما تحبّين رجلاً فهو هويّتك، وعندما تحبّين نفسك فأنت ياسمين، ولست فارة. لعلّي أضيف هنا أنك لم تحبّي اسمَك كثيراً، من أجل ذلك رحل عنك، لكنه عاد ليهبك فرصة حبّه من جديد. إنه الدليل الذي يخبرك كيف تحبّين نفسك أولاً، لتعرفي كيف تحبّين الآخرين».

ركز أفتاب ناظريه على عينَي ياسمين ومضى يقول «عندما يحدث ذلك ستخلق فرص لا تتوقعينها. لكن لا تهرولي ولا تكرهي. كل شيء سيأتي في وقته. يومنا هو أربع وعشرون ساعة لكننا نجعله اثنتي عشرة ساعة فقط. من أجل ذلك.. من أجل ذلك لا نسمع صوت داخلنا».

«وما علاقة صوت داخلنا بالهويّة والفرص؟».

«لأنه هو من سيدلّك على الطريق الصحيح، كما هي العمارة الخضراء وهبتك فرصة العودة إلى الماضي لتعيدي اكتشاف ذاتك وما فقد منك. أما الإسم فقد فتح لك بنسيانه باباً لم تطرقيه من قبل. هكذا كما ترين، إن ما نحسبه سيئاً في حياتنا قد لا يكون كذلك بالضرورة». صمت قليلاً ثم أزاح نظّارته وهو يقترب من ياسمين وقال وقد علته ابتسامة كبيرة «العالم يحتاج إلى نظارة أكثر سمكاً من هذه كي يرى ما هو أعمق من الظاهر».

«إنْ كان من خير أصابتي بفقدان اسمي فهو أني تعرفت إليك بشكل أكبر. وصدقاً أقول إني سعيدة بذلك» قالت ثم أضافت في تردّد «وأعتقد أنك قد أتيت في الوقت المناسب، ولست أظن أني في حاجة إلى حكمة رجل مثلك أكثر من الآن. لكن بالحديث عن الغد..». صمتت للحظة وهي تنظر إلى عينَي أفتاب «.. أشعر أن الغد مجهول، لنقل إني لست أرى فيه شيئاً أكثر من تصوّرات لما قد يحدث».

«دعيه يحدث إذاً. إن لم يحدث شيء فلن تحتاجي إلى صوت يخبرك ما تفعلين وأنت غارقة في وحدتك».

«هل تعني أن أنتظر وقتاً، لا أعلم كم سيطول، صوتاً من داخلي يرشدني كيف أمضي في حياتي؟» سألت في شبه استنكار.

«هو لن يرشدك، لكنه سيخبرك إنْ كان ما تفعلينه يستحق أن تمضي فيه أو ترحلي. أمر آخر... يجب أن تكوني مهيّأة لاستقبال ما سيأتي».

«استقبال ماذا؟».

«صوتك عندما ينطق» أعاد وضع نظارته. وأضاف «كثيرون يعتقدون أن الحظّ يجانبهم وليس الأمر كذلك بل هم لا يتهيأون لاستقبال فرصهم. عندما ترمين وتراً في البحر، يجب أن تكوني مستعدّة لسحب السمكة. إنْ لم تتهيئي فستضيع منك. هذا ما يحدث معنا، تذهب الفرص لأننا لم نتهيأ لاستقبالها».

«لكنها وفق قولك يجب أن تعود مرة أخرى. ألست تقول إن الفرص لا تنتهي».

«نعم، ستعود، لكن لتحصلي على سمكة ألقي بصنّارتك في البحر أولاً».

بقيت صامتة تنظر في عينيه. كانتا تلمعان على ضوء خفيف قادم من البعيد. لوهلة شعرت أنهما تدمعان.

عاد أفتاب إلى مذياعه، وعادت هي إلى شقتها.

تقلّبت في فراشها وهي تكرر سؤالاً حائراً «هل أنا امرأة سيئة؟» أخذت تسترجع أحداثاً قديمة مرّت بها، حتى تلك التي نسيتها يوم عاد لها اسمها. لم تكن هي امرأة سيئة في يوم، وإن نشأت علاقة بينها وبين أحدهم، علاقة عابرة، فقد كانت تبحث من خلالها عن ارتواء أنثوي وحبيب يبقى، فهي جسد يشتهي وروح عطشى. «ثم هل البحث عن الحبّ يجعل المرأة سيئة؟ وإذا أقامت علاقة مع رجل افترضت أنه شريك مستقبلها ثم تركها ورحل، فهل تكون وحدها الفأرة ولا يكون هو؟» تمتمت في سخرية «حتى في أحلامنا يطاردنا إرث عطن».

على سقف حجرتها رأت صوراً كثيرة. كان من بينها «أنا» الذي تخيّلته وسيماً طويلاً بصوته الرخيم. كان هناك أفتاب أيضاً والعمارة الخضراء. وبين تقلّبات الصور رأت نفسها تبكي.

مالت على جنبها الأيمن كي لا ترى دفقاً جديداً من الوجوه التي بدأت تتجمّع على السقف كسحب شتاء بارد. رأت أضواء العمارة الخضراء تتسلل بين ستائرها. نظرت إليها صامتة. كانت عيناها الجميلتان تلمعان وتجتهدان في تحليل كلمات حارسها الهندي.

«العمارة الخضراء العملاقة، المنزل الصغير كأنه جحر،

الإسم الذي نسيته، الهويّة التي ضاعت، الأصدقاء الذين لا تراهم، التجارب التي لا تنتهي، البشر الذين نسوا بشريتهم.. الهرولة، الهرولة، الهرولة. إنه ما قال أفتاب: الواقع الذي يفسر حلمنا».

في الصباح نهضت قبل أن تشرق الشمس. كانت منهكة من تقلّبات جسدها وأفكارها. أعدّت فنجان قهوة، رشفته ببطء مع سيجارتها الأولى، وأخذت تنظر إلى الساعة السوداء على الحائط جامدة ميتة بعقربها الوحيد. تراءى لها أن الساعة حزينة على عقربها الآخر. وكما لو هي مسألة انتقام من الزمن ابتسمت مع ما تراءى لها من أمر الساعة.

استلقت على أريكة صالونها في محاولة لنيل إغفاءة قليلة فما استطاعت. ثم نهضت وأخذت كرسياً من المطبخ، ووضعته أمام نافذة حجرة نومها، ومن هناك جلست ترقب ضوء الشمس عندما تشرق خلف العمارة الطويلة. أرادت تلك اللحظة أن تحسّ بوجودها ولو من بعيد، وأنها لا تزال هناك رغماً عن البناء البشع الذي حجبها. أمضت في جلستها تلك وقتاً لم تدر كم هو، لكنه كان مؤلماً وهي بالكاد ترى ضوءاً متواضعاً ينعكس على صفحة وجهها بسمرته المغرية. «ما عادت مغرية على ضوء كهذا» قالت في نفسها ثم نهضت ووقفت قبالة مرآتها. وعلى نحو ما أحسّت أن كل ملامحها قد تغيّرت. في الحمّام، بقيت تحت الماء الفاتر ربع ساعة تجتهد في غسل أفكارها التي علقت حتى بأطراف شعرها. لبست ثياباً تبرز تفاصيل تفتن العمارة الخضراء وغادرت إلى عملها.

في الأسفل كان أفتاب يجلس مكانه، وأمامه موزة جديدة تلمع بلونها الأصفر. رآها تهرول مسرعة كعادتها وهي تلقي بتحيّة تحاملت لتجعلها طبيعية. رد عليها بالمثل وهو يقف بأدب جمّ. وقبل أن يعود إلى مقعده كانت هي تعود إليه وتسأله عن الصوت الذي حدّثها عنه، «إن كان هو الأفكار التي تتوالى على رأسنا طوال الليل، وإن كانت هذه الأفكار سترشدنا إلى فرصنا القادمة؟».

«لا» قال بهزة من رأسه «فلن يخبرك صوت في داخلك بأنك فأرة..». صمت قليلاً وأضاف «ليس من الحكمة أن تجهدي عقلك في التفكير، فحتى الأمور الجيدة تكون عبئاً أيضاً».

«نعم، نعم.. ربما هي كذلك» قالت وأخذت نفساً عميقاً ثم أضافت «لقد أنهكت عقلي بالأفكار حتى وأنا نائمة... تخيل» قالت في تهكّم «لقد حلمت ذات مرة أن مواد بناء تطاردني، لو أمسكت بي لحطّمتني».

«وما أدراك أنها كانت تريد أن ترمم ما انكسر فيك لا أن تحطّمك. لعلّك ترين كيف أننا نهرب من خوف قد يكون في حقيقته فرصة ثمينة».

نظرت ياسمين إلى عينَي أفتاب فيما كان إيمان عميق يخبرها بأن هذا الهندي القصير الذي يعمل حارساً لعمارتها هو فرصة بحد ذاته، كي تنفّس ما بداخلها من هواجس.

نظرت، في وقفتها تلك، إلى الموزة التي بدت شبه متوارية أمامه، وبفضول طفل سألته «هل تحب الموز؟».

«نعم أحبّه».

«لكني أراك تضعها أمامك، تعتني بها طوال اليوم دون أن تأكلها. ستفسد إنْ بقت كذلك».

التقط الموزة برفق كمن يحمل وردة ثم قال وهو يتأمّلها بزهو «إنها إرادتي».

«إرادتك؟». سألته باستغراب.

«الموز فاكهة أحبّها، بل كان هو كل طعامي. وكي أخضع جسدي لإرادتي وضعت الموزة التي ترين أمامي متحدّياً لهفتي إليها». وبعد لحظة صمت، أضاف «من يتحكّم في ما يدخل إلى جسده يتحكم في ما يخرج من عقله».

****

حققت ذاك الصباح نجاحاً عملت عليه طويلاً ببيع شقة تخطّى ثمنها العشرة ملايين درهم. كان لديها بعد ذلك ثلاثة مواعيد متتالية، حضرت اثنين وأنابت زميلة لها في الأخير. كانت كلمات أفتاب تتردّد في رأسها، ولأول مرة، منذ سنوات، تشعر بأن هناك من يدلّها إلى الطريق الصحيح لتغادر شرنقة وحدتها. أهو نجاحها في عملها، أم أفكار أفتاب، أم «أنا؟»

أخذت ترتّب بعض الأوراق على مكتبها، عندما قدمت لها زميلة شيكاً مستحقاً لها على صفقات سابقة. ابتسمت وهي تتسلّمه. وقبل أن تنظر إلى الأرقام التي يحملها، رنّ هاتفها. كان «أنا» هو المتصل.

«نعم، عجول ومندفع» قالت وهي تنظر إلى الهاتف، ولم تُجبه. بعد نصف ساعة، عاود الاتصال. لم يعطها فرصة قول

أي شيء بل بادرها على الفور «هل تمانعين لو دعوتك إلى العشاء؟»

رغم ما بدا على صوتها من انزعاج متكلّف، فقد داعب اتصاله غرورها الأنثوي.

«متى؟».

«الليلة».

«آه، آسفة لدي بعض الارتباطات، ربما في مناسبة أخرى».

«هل يناسبك الغد إذاً؟».

«نتحدّث في الغد صباحاً وأخبرك».

لم تدم المحادثة أكثر من ذلك، فقد تصنّعت انشغالاً لا مبرر له. وقد سألت نفسها لمَ ردّت عليه بطريقة بدت أشبه بصدّ جاف افتقر إلى اللياقة.

الخوض في تجربة جديدة ليس عملية سهلة لامرأة تفجّر بداخلها جرح قديم. من أجل ذلك كان الصدّ ملجأها السريع. في داخلها كانت تتحرّق شوقاً إلى شريك ولو بنصف صفات «سليم» ولكن. «آه.. ها قد عدت أفكر في سليم».. لقد أدركت ياسمين في مرحلة ما أن حبّها القديم كان من الضخامة بحيث جعل من أي حبّ قادم أمراً مستحيلاً.

وجدت نفسها، بعد عودتها من عملها، تروي قصّة «أنا» لأفتاب بلا تحفّظ. كان يقرأ في كتاب مهترئ، طواه بهدوء وأخذ يستمع إليها. ما عادت ياسمين تنظر اليه كحارس هندي قصير. هو منذ الأمس لم يعد كذلك.

«لكن، ماذا بعد؟» عادت تسأل من جديد منهزمة أمام

إرادتها، وهي تختم قصتها السريعة، فيما هو منصت وسط انقطاعات متوالية من بعض القاطنين يستفسرون عن أمر أو يتذمّرون.

بعد أن فرغ من حوار سريع مع أحدهم، نظر إليها في هدوء، وقال «عندما نسأل أنفسنا ماذا بعد، فإننا نستبق زمناً لم يأت. لكنّ هناك على الدوام شيئاً سيأتي ولا شكّ..» ثم نهض واقترب منها وقال «في حياتنا عنصران يطغيان على كل شيء: الجهل والرغبة. فنحن نجهل الأشياء ونرغبها في الوقت ذاته. ومن الحكمة أن تأتي المعرفة أولاً، ثم تأتي «ماذا بعد» مشفوعة بالرغبة التي تريدين».

«أريد حبّاً أبدياً لا عشق ليلة واحدة».

نظر إليها من وراء نظارته وهو ممسك بكتابه، وأضاف «لا شيء أبدياً في الحياة سوى فرصها، لأنها تتكرر بفعل صانع أبدي».

وضع الكتاب جانباً وأضاف بنبرة واثقة «ربما كان «أنا» هو فرصتك. عندما نقرأ في قصة جديدة لا نفكر في نهايتها قبل أن تشدّنا القصة إليها».

«هل تنصحني بأن..»..

«أنصحك أن تبدئي قراءة القصة أولاً».

«هل تراه فرصتي التي قد لا تعوّض؟».

هزّ رأسه نافياً، وكمن ملّ تكرار العبارة ذاتها، قال في شبه زفرة «كل فرصة تعوض ذاتها بأكبر منها».

أخذت تنظر إلى هاتفها، تعبث به وتسترق النظر على استحياء، إلى الرجل الذي بدا أنها قد أرهقت رأسه الصغير بما

يكفي. لكنه قطع صمتها بصوت هادئ، وقال «الحبّ والكره نقيضان تجمع المعرفة بينهما. فأنت لن تكرهي ما لا تعرفينه، ولن تحبيه بالمثل. امنحيه الفرصة، ولتكن تلك فرصتك أيضاً».

ابتسمت بتودّد ومضت تجاه المصعد. وهي مولية ظهرها إليه سألته في دلال «ماذا يعني اسم أفتاب؟».

«الشمس» أجابها، وهو يعود إلى مقعده ويفتح كتابه المهترئ.

جمدت مكانها. فكرت في المفارقة العجيبة بين الشمس التي أخفتها العمارة الخضراء عن حجرتها، وشمس أفتاب التي أضاءت ما بدا لها ظلاماً مطبقاً في حياتها الوحيدة. عادت إلى حيث يجلس مع كتابه، بدت كطفلة أمام معلمها «أعرف ما تفكرين فيه.. في الشمس التي غابت عن حجرتك، واسمي. عندما تغيب الشمس ستعود في اليوم التالي» قال دون أن يرفع رأسه عن الكتاب.

بهدوء صعدت إلى شقتها وأفكار الكهل الهندي وصورة «أنا» تتناوب على رأسها. بعد أن أغلقت باب شقتها، أسندت ظهرها إليه، شرع عقلها يتخيّل جسداً بعيداً وجميلاً. كانت راحة يدها اليمنى ترتعش على الباب وراءها، والأخرى تلامس مكاناً آخر على جسدها. اجتاحتها تلك اللحظة إثارة عارمة. لكنها انتفضت سريعاً، وابتعدت عن الباب كما لو كانت تهرب من رجل يطوّق عنقها. اندفعت إلى حجرتها وألقت بنفسها على السرير. حضنت الدبّ الأحمر، وأخذت تداعب نفسها من فوق ثيابها. أطلقت صرخة مكتومة ثم أغمضت عينيها لثوانٍ قليلة على ما تبقى من

ضوء النهار، عندما فتحتهما كانت العتمة تملأ المكان.

الثواني تلك التي أغمضت عينيها فيها كانت ثلاث ساعات من النوم العميق. لقد استعاد الجسد دينه من تقلّبات البارحة.

وجدت أكثر من رسالة على هاتفها الجوال، إحداها كانت من «أنا». أخبرها انه يتحرق شوقا لرؤيتها في الغد. «.. ومن قال إني سأراه في الغد؟».

تلك الليلة لم تغادر شقتها. وإنْ أحبّت أن تفعل فليس أكثر من جولة في الجوار، وربما رؤية أفتاب. إلاّ أنها أحجمت بعد أن أدركت أنه سيكون الآن مع مذياعه يرتاح أمام باب غرفته الخلفية، ومن جديد سألت نفسها إنْ كان صواباً ما تفعله بإقحام غريب هندي في حياتها. ولأول مرة ترى نفسها تهرول لا في طريقة سيرها فقط بل في طريقة تصرفاتها أيضاً. لكنها ما لبثت أن وجدت جواباً اقتنعت به «أفتاب، الغريب الهندي، هو أكثر من تعرّفت عليه في هذه المدينة الغريبة صدقاً وعفوية. كما أنه، وهذا الأهم، لا ينتظر مقابلاً ولا يتوقّع شيئاً». أحسّت مع جوابها برضى يجتاحها، فإن كانت دبي صاخبة وسريعة، فإن الهرولة باتجاه رجل حكيم تبدو الشيء الصائب الوحيد الذي يمكن القيام به.

أشغلت ساعتها التالية بجهاز اللاب توب وبضعة اتصالات، لكنها، بعد التاسعة مساء بقليل، كانت تقف أمام حجرة أفتاب. رأت المقعد الخشبي فارغاً، وعندما التفتت تبحث عنه وجدته يحمل بعض أكياس القمامة ويسير بها إلى صفيحة ضخمة. أحسّت بألم وهي ترى الرجل المليء بالحكمة يحمل تلك

الأكياس التي يقطر بعضها بالقرف. أكبرته عمّا يقوم به، وتمنّت لو أن أحداً آخر أو هي تحملها نيابة عنه.

هرولت منزعجة باتجاه البناية، وعندما رآها منصرفة لم تند عنه كلمة واحدة، بل عاد إلى حجرته وجلس مع مذياعه أمام الباب.

في شقتها، وعلى هاتفها، وجدت رسالة أخرى من «أنا» تحمل قصيدة غزلية. قبل أن تكمل قراءة ما أرسل، محت الرسالة. «لن أراه» قالت وهي تشعر بمرارة ما رأت في الأسفل، ومن اندفاعة «أنا» وعناده في فرض نفسه عليها. انصرفت ترتّب بعض أوراقها ثم خلدت إلى فراشها حاجبة عن رأسها كل فكرة أو صورة تؤرقها.

في الصباح الباكر، ورغم حاجتها إلى ذهن صاف لإتمام صفقة جديدة أعدت لها هي الأخرى منذ وقت طويل، وجدت نفسها تسترجع صورة أفتاب وهو يحمل الأكياس النتنة. لم تفكر وهي تشرب قهوتها الصباحية في شيء أكثر من ذلك. حتى العمارة الخضراء ما التفتت إليها. وفيما هي تهرول، كعادتها، مغادرة بنايتها رأته يجلس مكانه.

أبطأت سيرها، وتوجهت نحوه وهي تمسك بكلتا يديها مقبض حقيبتها التي تشبه البطّة، وبتردد سألته بعد تحية صباح باهتة «أحببت أن أحادثك البارحة، لكني..». صمتت قليلاً «لكني رأيتك منهمكاً و.. و..».. وقبل أن تكمل قاطعت نفسها بصوت مرتفع «لماذا لا يساعدك الحارسان اللذان يعملان معك على حمل أكياس القمامة؟».

كانت تلك أكبر ابتسامة تراها على محيّا أفتاب وهو يجيب في هدوء «لأنه دوري أنا في حملها هذا الأسبوع».

فكّرت أن تقول له إن الحارسين الآخرين أقوى بنية، وأكثر شباباً، لكنها أحجمت، وعوضاً عن ذلك، سألته «ألم تجد عملاً أفضل من هذا؟».

«إنه عمل أحبه». قال وهو ينظر إلى ما يشبه الازدراء في عينيها لطبيعة عمله، فأضاف وقد علته ابتسامة أكبر «دعيني أقلها لك يا سيدتي... أنا مؤمن بأن كل ما حصلت عليه في حياتي هو شيء أستحقّه بالفعل، وكل ما لم أحصل عليه لم أكن لأستحقّه مطلقاً».

«ماذا كنت تعمل في السابق. أقصد قبل أن تأتي إلى دبي؟».

« معلّماً في قريتي. هي في الواقع قرية صغيرة وفقيرة. كنت أعيش على ما يدفعه لي أهل الطلاب، بعض المال حيناً وأحياناً بعض الثياب والطعام».

«وهل كان في ذلك ما يكفي؟».

«بالكاد».

«ولماذا لم تبحث عن عمل آخر؟».

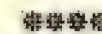
«قد فعلت، وها أنذا في عمل آخر كما ترين». نهض عن مقعده وأضاف «ليس مهماً ما الذي تعملين يا سيّدتي، بل لماذا تعملين. أنا هنا أحرس العمارة وأجعلها نظيفة، فما الذي يفعله الآخرون ليصبح العالم أكثر نظافة؟».

لم تدر ياسمين بم تجيب، فهي لم تقف ذات يوم أمام سؤال كهذا حتى مع نفسها. وما تعمله الآن لا غاية له سوى جمع ما

أمكن من مال. لقد أصبحت هي، دون أن تدري، ماكينة صرف آلية، تدخل إليها النقود وتخرج منها بلا مشاعر فرح أو أسى، بلا مشاعر على الإطلاق، كزملائها، كأصدقائها، وككل من عرفتهم، إلا هذا الهندي القصير، النصف أصلع، النقي، كما رأته ذاك الصباح.

وسط أرتال من السيارات التي تسير أمامها وخلفها كطابور نمل، كان عقلها المنهك يفكر في حكمة أفتاب، وحكمتها هي «المال يوفر الأمان، لكن مال الدنيا لا يملأ الروح الخاوية».
عندما أوقفت سيارتها أمام مكتبها، بقيت بضع دقائق تنظر إلى المبنى الذي تعمل فيه، أدركت أنها المرة الأولى التي ترى تفاصيله من الخارج. كان جميلاً وكبيراً تكسوه ألواح زجاجية بزوايا حادّة تارة وملتوية تارة أخرى في تناغم جذّاب. في صمتها ذاك أحسّت أنها تشبه هذا البناء الذي أمامها. حادّة وملتوية لكن بلا تناغم. أحسّت أنها قابلة للكسر كهذه الألواح الزجاجية، أحسّت أيضاً، أن هذا المبنى الكبير، الذي جعل منها ناجحة وثرية، هو نفسه ما جعلها وحيدة. وأحسّت أخيراً، أن الصفقة التي تنتظرها الآن، ستزيد من رصيدها، من قوتها، لكنها ستزيد من وحدتها. لقد أدركت تلك اللحظة، وفي وقفتها تلك، أن عزلتها تتعمّق مع كل صفقة ناجحة.

عادت بسيارتها للوراء، وغادرت.



ترجّلت من سيارتها أمام مقهى غير بعيد عن منزلها. كانت الساعة تشير إلى ما بعد التاسعة صباحاً. جلست إلى طاولة تطلّ

على عمارتها. لم تشعر برغبة في القيام بأيّ شيء، هذا الصباح. وتركت ما عليها إنجازه لزميلة لها. طلبت قهوتها، ثم أخرجت ورقة وقلماً، وبدأت ترسم مجموعة دوائر تضع في قلب كل منها بعض ما سمعته من أفتاب.

وجدت نفسها ترسم سلسلة متصلة ومتراقصة كذيل فأر طويل: هدوء، صمت، ضجيج، صخب، هرولة، حبّ، صوت داخلي، وأشياء أخرى كثيرة.

من مقعدها نظرت إلى عمارتها، وبجانبها العمارة الخضراء الطويلة. لأول مرة ترى العمارتين من هذا البعد. بدت عمارتها التي اعتقدت ذات يوم أنها عالية جداً، قزمة أمام الجارة الخضراء. فالأخيرة قمة تتصل بالسماء. «مخيفة من هنا، فكيف من نافذة حجرتي؟» فكرت.

عادت إلى ورقتها تبحث عن ذاتها بين الحلقات. دون توقّع أتاها اتصال من صديقة تخبرها بأنها ستزور دبي ليومين في طريقها إلى سنغافورة. رحّبت بها ياسمين، وانتشت بالخبر. فقد كانت تلك الصديقة التي عملت معها ذات يوم الأقرب إلى نفسها. وكثيراً ما جمعتهما أفكار عن الحبّ والزواج. تزوّجت الصديقة برجل حسدتها النساء عليه. لكنها لم تلبث أن اكتشفت كم هو بخيل. وقد أدركت بغريزة أنثوية لا لبس فيها أن الرجل البخيل في عطائه بخيل في عاطفته كمتلازمتين لا تنفصلان. لم تدم الحياة بينهما أكثر من عام واحد، ثم أتى انفصال مؤلم عجّل فيه أن زاد على بخله خيانته لها. تزامنت تلك الفترة مع الأيام الأولى لياسمين في دبي، تغسل آلامها من «سليم». هكذا وثّقت

الأوقات العصيبة التي عاشتها الصديقتان العلاقة بينهما قبل أن تعود الصديقة إلى فرنسا لتقيم مع والدتها وشقيقيها. لكنها لم تنس دبي. وقد كتبت إلى ياسمين أكثر من مرة عن شوقها إلى المدينة التي أحبّت شمسها وبحرها والثياب الخفيفة التي تبعد عن جسد الإنسان كآبة الغيوم الثقيلة. ولولا أن ارتبطت بعمل مع شركة علاقات كبيرة في باريس لعادت، إلى دبي منذ سنتين.

رشفت ياسمين قهوتها بهدوء وهي تفكّر في أشياء كثيرة ستفعلانها معاً عندما اتصل «أنا». كانت الساعة تقترب من العاشرة. تجاهلت اتصاله الأول، فأتبعه باتصال ثانٍ بعد نصف ساعة وتجاهلته أيضاً. لم يكن موقفها رافضاً له، بل حائراً ومتردداً رغم نصيحة أفتاب. وقد كادت للحظة أن ترد على اتصال هذا الـ «أنا» العنيد، المصرّ. لقد كان إصراراً يسعدها، ويطمئنها على نحو ما في الوقت ذاته. توقّعت أن يعاود الاتصال وإن قالت في سرّها إنها لو كانت مكانه لما فعلت مع هذا القدر من التجاهل.

«ما الذي سأفعله الآن؟»، سألت نفسها، وعيناها على الهاتف.

انطلقت تجاه «برج خليفة». قادت ببطء كمن تلتمس كل لحظة صفاء في وقتها. قبل أن تختفي في المواقف السفلية للسوق الضخم، أسفل البرج، أخذت تنظر إلى البناء الفضّي العملاق وهو يزداد ضخامة كلّما اقتربت منه. تجوّلت في «دبي مول» بهدوء استغربته هي في نفسها. كان شيء قوي في داخلها يبطئ سيرها ويحدّ من هرولتها. مشت حتى وصلت إلى البحيرة المكشوفة

حيث جلست البارحة مع صديقتها. اقتربت من البرج أكثر، وأخذت تنظر إليه كأمّ تتأمل ابنتها في ثوب زفافها. لم يداخلها خوف كالذي أحسّت به البارحة. نظرت إلى الناس من حولها، سائحين وقاطنين، وتساءلت هل يدهش البرج كل هؤلاء؟

تذكّرت كلمات أفتاب «كل ما تحبّينه سيحبّك». إذاً عليها أن تحبّ الحياة ودبي، والبرج، والبحيرة، والناس الذين يسيرون هناك، وعملها، وصفقاتها... «لكن، ماذا بعد؟» طفا السؤال على بحيرة أفكارها كبقعة زيت خاملة. لم تعد «ماذا بعد» سؤالاً، بل لطخة لا بدّ من إزالتها. انكمشت على نفسها مع نسمة هواء باردة. إنه الشتاء يقترب، وأفتاب يردّد من مكان ما خلف البرج أو أمامه «هناك دائماً شيء سيأتي فيما بعد».

تجوّلت في أسواق البرج لساعتين، تتأمّل في الحوانيت الضخمة لكل الماركات العالمية. بدا لها أن الأسماء اللامعة تسير معها، وتساءلت إن كان من نعتقد أنهم مشهورون ومحاطون بالناس يعيشون وحدة لا تختلف عن الناس العاديين. في يقينها إيمان بأن أفتاب أكثر سعادة في حياته البسيطة ومزهوّ بما يعمله. أخذت تسير ببطء وهي ترقب حركة الناس من حولها. لم يكن السوق عامراً بهم في هذا الوقت من الأسبوع، أو هو من الضخامة بحيث يتضاءل عدد الزائرين في طرقاته مهما كان عددهم. لفت انتباهها رجل وسيم يسير في الاتجاه المقابل لها، وتساءلت في سرها إلى أي مدى قد يشبه "أنا". أخذت في مشيتها تلك تقرأ الوجوه، وتبحث عن واحد بينها تكسبه صفات من تحب أن يكون معها. ومرة أخرى تساءلت إن كان القادم الجديد الى حياتها سيكون هو من استحقّ انتظارها الطويل. وإن

فكّرت في شيء خلال جولتها تلك فهو سؤال أحبت لو تطرحه على «أنا»: «ماذا تريد مني؟ ليلة حمراء؟ أنا لست امرأة ليلة واحدة».

بعد دقائق، وجدت نفسها تقف أمام حوض مائي ضخم «أكواريوم» في الطابق الأرضي من «دبي مول» أسفل البرج الفضي الذي اختفت قمته وراء غيمة رمادية. كان جمع من الناس يقف في مواجهة الحوض يتأمّل الأسماك وهي تسبح كأنها تطير في الهواء، قرش يصل طوله إلى أكثر من ثلاثة أمتار، جنباً إلى جنب مع أسماك صغيرة ملوّنة لا يتجاوز طولها بضعة سنتمترات. رأت انعكاس صورتها على زجاج الحوض. كانت تبدو جميلة على هذه الخلفية المائية وأحسّت برغبة جديدة ارتعش لها جسدها. بقيت تنظر ثابتة بعمق وتركيز أكثر فأكثر إلى أن شعرت كأنّها داخل الحوض، تسبح مع الأسماك وتحاورها. ومن الداخل رأت نفسها تقف بين جموع المتفرّجين، ببنطلونها الجينز الضيّق، وبلوزتها القطنية الحمراء، وحقيبتها التي تشبه البطّة. أغمضت عينيها وصلت في وقفتها تلك كي لا تنتهي أحلامها وأخيلتها. ولولا أن شهيّة طعام فاجأتها، كانت قد افتقدتها الأيام الماضية، لبقيت مكانها ساعة أخرى. غادرت بتردد إلى ردهة المطاعم، اختارت مطعماً إيطالياً وأكلت بشهية من لم يأكل لأيام.

في طريقها إلى منزلها، استوقفتها رائحة البحر، فغيّرت وجهتها إلى منطقة الممشى تحت أبراج شاطئ جميرا. كان اعتدال الطقس مع اقتراب الشتاء يغري بالمشي في ذلك الوقت المبكر من النهار. أوقفت سيارتها في منطقة تنتصف المسافة بين

الممشى والبحر، ومن هناك خلعت حذاءها الخفيف وانطلقت حافية على الرمل باتجاه الشاطئ. أخذت تتأرجح في مشيتها كراقصة باليه، خطوة داخل الماء وأخرى خارجها. كانت تعبث وتضحك وتغنّي. بعد أن أكملت إلى آخر الشاطئ، ثم إلى الامتداد الآخر، عادت إلى سيارتها. جفّفت قدميها، وانطلقت إلى منزلها وموسيقى صاخبة تتطاير وراءها كمنديل زاهي الألوان.

****

«منذ كنت طفلة وأنا أقرأ قصص عشاق بكل لون. لم يكن الزواج هدفاً حينها. لقد كان الحبّ هو الغاية وحده». قالت لأفتاب وهي تنظر إليه مبتسمة، وتجيب عن سؤاله «كيف كان يومك؟». لقد أحسّت أن هذا اليوم تحديداً كان يربط بقوة بين ياسمين الآن، والطفلة التي كانتها بالأمس.

«أفكار الطفولة أجمل من واقع الكبار» قال أفتاب.

«كان أبي...» تردّدت قليلاً وقالت «كان أبي قاسياً بعض الشيء. منذ اليوم الأول ولدت وحيدة، وتعوّدت وحدتي. أصبحت أنا وهي صديقتين».

بقي هو صامتاً يستمع إليها في اهتمام.

«أنا لستُ حزينة من أجل ذلك، وأذكر تماماً كل كلمة قلتها. القصّة أنني لا أريد أن أعيش بلا هدف. لست خائفة أن أموت وحيدة، بل خائفة أن أعيش وحيدة، والشخص الذي أخبرتك عنه، ما زلت حائرة في أمره. شيء يدفعني تجاهه، وآخر يبعدني».

«في المخاطرة طريق للنجاة. حتى ولو كان في الأمر ما يريب فيجب أن تكتشفي بنفسك. إنْ لم تكن هذه فرصتك، فستأتيك ولا شكّ أخرى غيرها» قال لها.

«كانت لي فرصة تحوّلت إلى سمكة ميتة. هل تخلق السمكة الميتة فرصة لسمكة أخرى تعيش في حوض ماء كبير؟».

«خلف الباب المغلق ستجدين باباً مفتوحاً، كما الشمس، وكما هي الحياة كلها تكرّر نفسها».

أطرقت رأسها تعبث بطرف حزام رقيق يتدلّى من جيدها وسألته «هل يأتي الحب لأننا نحتاجه؟».

«هو من يحتاجنا لأنه لا يعيش إلاّ في جسد، أكان الجسد نحن أم .. هذه العمارة الخضراء». وأشار بيده إلى الخارج «عندما نحِبّ الحبّ ذاته، سيحبّنا، ويعيش في أجسادنا».

ذلك المساء، وبعد حديثها السريع في البهو مع أفتاب، جلست ياسمين تقرأ بعض أوراقها، ويدها تعبث في جهاز التلفزيون على غير هدى، من بين الأوراق وصور التلفزيون المتكررة، طالعها بعض ماضيها. وقد كان ذلك من حظ «أنا» الذي أتى اتصاله في تلك اللحظة ليكون ملجأ تهرب إليه.

«أعتذر عن إزعاجك، لكنني اتصلت بك حسب اتفاقنا البارحة. هل نتناول العشاء معاً؟»

«نحن؟ لا، بالطبع لا».

«لقد وعدتني البار...». وقبل أن يكمل جملته أجابته في امتعاض «لم أعدك بشيء».

شعر هو بانزعاجها، وعوضاً عن التراجع أطلق ضحكة خفيفة

«حسن، حسن، لم تعديني بشيء، لنقل إني أنا من وعد نفسي بأن أقدمها لك. ألا تعتقدين أن الأفضل لو التقينا؟»

أعجبها إصراره، ثم سألته وهي تزيح بيسراها شعراً انسدل على وجهها «ما الذي تريده مني؟»

«أن تقبلي دعوتي للعشاء».

«وماذا بعد العشاء؟»

«نشرب القهوة» أجاب مداعباً. وأضاف بنبرة لطيفة «حسن، لا شيء بعد العشاء إنْ كان هذا يريحك».

«ماذا تعني لا شيء؟ لا يوجد رجل لا يريد شيئاً من المرأة. ثم هل تعرفني من قبل أو تعرف كيف أبدو ومن أكون؟».

«حسن، لنقل إني استعملت خيالي. هل تريدين أن أصفك؟».

«إن استطعت..»..

«هل تقبلين دعوتي للعشاء إذا أصبت في وصفي؟».

«سأفكر في الموضوع جدّياً».

«حسن، هذا يكفيني» وأخذ يصفها لأكثر من ربع ساعة. بدأ بعينيها فقال إنهما واسعتان شديدتا السواد كحور العين، وشعرها كستنائي تربطه كضفيرة تتدلى من فوق كتفها إلى صدرها، وأنف حاد مرتفع في شموخ وفم صغير بشفتين مكتنزتين لامعتين. ثم انتقل إلى الألوان التي تفضلها، والطعام الذي تحبّ ولا تحبّ فيما هي تنصت. بعد أن انتهى قالت له ببرود «حسن، ليس في ما قلت شيء ينطبق عليّ»، وقد صدقت في ما قالت ولكأنه يصف امرأة أخرى.

«هل تعرف...؟» سألته «لعلّك تبحث عن امرأة بهذه الصفات. لست إذاً من تبحث عنها». وقبل أن تعطيه فرصة للرد ختمت بطريقة بدت سخيفة «اسمح لي الآن فلدي ما يشغلني» وأقفلت الهاتف.

عادت تنظر في أوراقها ومرّت ثانية، فثانيتان، فعشر، ثم شقّت صرخة فضاء شقّتها الصغيرة «حمقاء.. حمقاء.. لماذا فعلت ذلك؟ آه.». وأطبقت براحتيها على وجهها «آه... آه». التقطت هاتفها الجوال وهمّت برميه بعيداً عنها لكنه أخذ يرنّ باتصال تمنّت أن يكون منه هو أكثر من أي شخص آخر، وقد كان بالفعل هو.. «أنا».

ابتسمت، ضحكت، وأجابته.

الشمعة

استغرب زملاؤها غيابها المتكرر. ومع أن ياسمين كانت تنجز من منزلها صفقات أكثر من تلك التي تنجزها من مكتبها، فقد وبّخها رئيسها المباشر قبل يومين عندما أخبرها بأن عملها كمسؤولة علاقات يتطلّب حضوراً مستمراً.

لم تأبه بما قال، بل إن ابتسامتها أخذت تكبر كهلال يرتفع في سماء صافية. كان داخلها يشعّ بالرضى، وبشيء من الزهد. لم تعرف حتى تلك اللحظة إنْ كان سبب انتشائها حكم أفتاب أم الذي اسمه عامر، وإنْ بقيت تدعوه كما عرفته منذ اليوم الأول: «أنا».

أيّاً يكن السبب، فقد بدت ياسمين تدخل مرحلة تحوّل جعلتها أكثر جمالاً وأقوى من تلك التي وقفت كطفلة مرعوبة قبل أيام أمام العمارة الخضراء.

وفي الوقت الذي أخذت علاقتها تتطور بهدوء مع «أنا»، كانت حواراتها مع أفتاب تختصر في كلمات أقلّ وإنْ بقيت بالعمق ذاته. لقد عاش حارس عمارتها معظم تفاصيل علاقتها التي خلقت للتو، منذ أغلقت الهاتف في وجه «أنا» إلى اللقاء

الأول، فالعشاء الأول، فالليلة الأولى في شقته.

في اليوم الذي قررت فيه أن تلتقيه بعد طول لأي ورفض، ذهبت في كامل زينتها. لم يرها أفتاب بتلك الهيئة الأنثوية من قبل، وهي تقفُ أمامه على مدخل العمارة. فقد عرفها امرأة عملية تهرول في الذهاب والعودة.

سألته «كيف أبدو؟».

«أميرة». أجاب وهو يتأمّل قامتها الفارعة. وكرّر «أميرة حقيقية».

«أشعر بخوف وسعادة في وقت واحد. فهو لقاؤنا الأول».

«تجاهلي كليهما واذهبي دون توقّع مسبق. مشاكلنا تبدأ عندما نتوقّع الكثير من الآخر».

لمست يده بحنان ومضت تجاه سيارتها. في اللحظة التي سلكت طريقها باتجاه «مدينة جميرا»، حيث الموعد، أخذت تفكر كيف عليها أن تتصرّف أمام «أنا» دون أن تتوقع شيئاً من اللقاء تاركة النهر يسير إلى مصبه. «لن أتوقّع شيئاً لن أتوقّع شيئاً.». ودون أن تدرك أخذت تتوقّع فوق ما أرادت «قد لا يكون وسيماً.. ربما هو سيىء الأخلاق.. ربما هو بخيل»، ورسمت أثناء رحلتها تلك جملة صور سيئة عن الرجل وهي لم تره بعد. ولو قدر أن تتجسّد صورها لوحة سيريالية التفاصيل لأمكن رؤية شيء يشبه التنين. أغلقت عينيها وشهقت هواء ملأ رئتيها حتى العنق، وعادت إلى وصية أفتاب الذي باتت تؤمن بكلماته كنصوص مقدّسة، وأوقفت تصوراتها.

لم تكن «مدينة جميرا» تبعد عنها كثيراً، فوصلت قبل موعدها

بربع ساعة، وأخذت تتجوّل في المكان على قدميها. كانت هذه المدينة ملجأ مناسباً لها في أيامها الأولى كلما أرادت أن تنتقل بنفسها إلى زمان ومكان مختلفين. فهي أشبه ببلدة قديمة من الطين والآجر لكن بتقنية حديثة. كما أن طرقاتها وأزقتها المكيّفة الهواء، والأسقف الخشبية المقرنصة التي تشبه الأسواق الرومانية القديمة، أو أسواق الشرق العتيقة، تخبر الزائر بأن دبي ليست مدينة أبراج زجاجية فقط. إنها باختصار مدينة عريقة، أو هكذا أريد لها أن تكون، وسط مدينة هي غاية في الحداثة.

جالت على الحوانيت المتلاصقة بعضها ببعض بذات الطراز القديم، فيما امتلأت الأجواء برائحة بخور تذكّر كل عابر أن دبي تبقى قلباً شرقياً نابضاً رغم المسحة الغربية التي تطغى على كثير من معالمها.

سارت إلى أن وصلت إلى طرف المدينة العتيقة، حيث تنتشر الحانات والمطاعم في إطلالة مباشرة على قنوات بحيرة تخترق أزقة المدينة. أحسّت بنفسها وقد انتقلت من شرق عتيق إلى غرب عتيق آخر، ذكّرها بالبندقية الإيطالية، حيث تسبح عبر القنوات جنادل صغيرة تعبر بالزائرين من ضفّة لأخرى.

هذا التمازج القائم بين نقيضين، والذي ينقل الزائر من زمن لآخر، جعل ياسمين تؤمن بأن العراقة الحقيقية للمدن لا تكمن في الأحجار، ولا في الأزقة القديمة التي تلتوي في العالم كله بالطريقة ذاتها، بل تكمن في الإنسان ذاته، إذ هو الأقدم والأكثر قيمة. ومن خلاصتها هذه وجدت أن العراقة التي تفتقدها دبي هي تهمة لا مبرّر لها، إذ حيث وجد الإنسان وجدت ثقافة ضاربة في القدم، سواء أكان في دبي المدينة الحديثة أم في لندن المدينة القديمة.

عندما دخلت إلى المطعم الذي تواعدا فيه، وجدته هناك. كان يضع ربطة عنق بلون أحمر قان، وقميص أبيض، مع جاكيت سوداء. ومع أنه كان يبدو حريصاً على أناقته، بل مبالغاً فيها، فقد بدا أكبر من عمره. هي أحبّته أكبر منها، ولو بأربعة عشر عاماً. كان أنيقاً أكثر مما يتطلّبه لقاء عاطفي، فيما كانت هي أكثر عملية في زيّها أمام رجل بذل جهداً كي يحظى بفرصة العشاء تلك. لم يكن يشبه أية صورة تخيّلتها له، كان يشبه ذاته فقط، حتى إنها أحسّت للحظة بأنه نسخة يصعب العثور على مثيل لها في دبي. وقدّرت أن من المستحيل أن لا يكون قد تعرّض لإغراءات نساء لا تنتهي. لم تصرفها كلماته اللبقة عن النظر إلى حذائه، ويديه، وساعة معصمه. كانت جمعيها تشي بذوق خاص.

لكن يبقى أن أكثر ما أعجبها ثقته العالية بنفسه، وربما عناده ليحصل على ما يريد. من أجل ذلك كان سؤالها الأول «لماذا الإصرار على التواصل معي وقد صددتك أكثر من مرة؟».

«إحم.. حسن. في الواقع وبلا مقدّمات، لقد أعجبني صوتك».

«وهل جعلك صوتي مثابراً إلى هذا الحدّ كي نلتقي؟».

«العالم يميّز بعضه بعضاً بالصوت. إن الصوت هو العلاقة الأولى، معه يبدأ كل شيء أو ينتهي».

للحظة أحسّت أنها تستمع لأفتاب، إذ هو يتحدّث بالكيفية ذاتها.

سألته وهي تنظر إلى ساعة معصمه «هل أنت معتاد على التعرّف إلى النساء بطريقة البلوتوث؟».

«أولاً، ليست لي نساء أخريات وأدّعي أني إنسان مهووس بعمله بالدرجة الأولى، ثانياً، الطريقة التي تعرفت بها إليك كانت صدفة، فقد كنت أعبث بهاتفي لا غير».

في ردّه الذي بدا عفوياً لم تعرف ما إذا كان ينبغي لها أن تكون مسرورة أو حذرة من رجل لا خبرة له في النساء، فمن قال إنها تحبّ رجلاً مغمض العينين، وفكرت أنه ربما كان يكذب.

«لماذا أطلقت على هاتفك اسم «أنا»، أهو نوع من الغرور؟».

«ليس غروراً، لكني أجده مستفزّاً».

«وهل تحب استفزاز الآخرين؟»

«أحبّ إثارتهم.. لكن لمَ كل هذه الأسئلة؟ المهمّ أننا التقينا. ماذا تطلبين على العشاء؟».

كان يحبّ الحديث عن نفسه وعالمه وعن كل ما يدور في فلكه باعتزاز عجيب. وقد وجدت نفسها ترتاح لانطلاقه في الحديث، إذ أزاح الأمر عن كاهلها عبء الحديث عن ذاتها هي، فلا تبدو بصورة المهتمّة بالاقتراب منه، وإنْ كانت في داخلها، وفي تلك اللحظة تحديداً، وأمام شاب وسيم مثله، مهتمّة جداً.

تحدّثت قليلاً عن عملها، وتحدّث هو كثيراً. رغم ذلك انتبهت إلى أنهما، وفي بعض المواقف يناور أحدهما الآخر. وبقدر ما أزعج ذلك ياسمين، بقدر ما جعلها تحسّ بأن الذي أمامها هو مثلها تماماً، ليس رجل ليلة واحدة، أو أن هذا على الأقل ما تمنّته.

عندما تطرّق إلى عائلته، وكيف أنها وبسبب الأوضاع الاقتصادية قد تعثرت بعد فترة ازدهار، كان يتحدّث بفخر من ينتسب إلى عائلة لا تزال ترفل في الثراء. وبدا لها أن خيطاً

ضئيلاً يربط «أنا» بالرجل الذي أحبّته يوماً، إذ يشاركه في الإيمان بأنه يسبق العالم كله بخطوة واحدة. أمام صراحته بدت هي لا شيء. فقد ترددت في إخباره الكثير عن حياتها، وعائلتها، وتجربتين سابقتين. لكنها وجدت نفسها، وفي لحظة هربت فيها الإرادة، تتخيّل «سليم» يتحدّث أمامها.

أحسّ «أنا» بشرودها مع حديثه المسهب، فكان يدعها تمضي بعيداً ثم يعيدها إلى طاولته بحديث شيق. وقبل أن ينتهي اللقاء وجدت أنها عرفت عنه أكثر مما عرف هو عنها. ولعلّها أرادت للوضع أن يكون هكذا، مع أن الأمر أشعرها كم هي متشكّكة بنفسها مقارنة بما كانت عليه في اليومين الماضيين، ومقارنة بـ «أنا» نفسه الذي بدا حينها كقدر غامض. وبحثاً عن تبرير لتشكّكها كررت في نفسها «لن أكون سهلة لأحد». في الدقيقة الأخيرة من اللقاء شعرت بخجل من حذرها المبالغ فيه أمام رجل لم يأت بما يزعج ولا حاول في كثير أو قليل، إغواءها. لقد كان صورة مختلفة عما تخيّلته فيه من اندفاع. واستسلمت، مع الطمأنينة التي سكنتها، لطائفة من الأفكار التي كان من الممكن أن تمتد باللقاء حتى ساعات الصباح الأولى، إلا أنها وجدت أن ليس من النضج الاستسلام لأحلام بعيدة من اللقاء الأول، وأن من الأفضل أن تنهيه محملة بانطباعات جيّدة دون أن تسأل نفسها مرة واحدة: ماذا بعد؟

قبلتان طبعهما الرجل الوسيم على وجنتيها، وانتهى اللقاء.

طوال رحلتها إلى منزلها كررت سؤالاً على نفسها «هل توقّعت شيئاً، هل توقّعت شيئاً؟». شردت في أضواء الأبراج

البعيدة وأجابت «لقد نجحت، فلم أتوقع شيئاً من الرجل». أدركت ياسمين وهي تنظر إلى عينيها في المرآة أنها تخدع نفسها. فقد توقّعت شيئاً، بل توقّعت الكثير.



لم تذهب إلى شقتها فور إيقافها السيارة أمام بنايتها، بل سارت إلى عمود النور الوحيد بجانب العمارة الخضراء. أسندت ظهرها إليه، وتأملت البناء الشامخ أمامها وتمتمت «هل يشبه جسد إنسان؟» رفعت رأسها إلى الأعلى وبقيت تنظر إلى القمة التي تبرق بأضواء خاطفة. في وقفتها تلك، أحسّت بألم في قدمها اليمنى التي التوت منذ أيام، وهي تصعد الدرجات الأربع في مدخل بنايتها، وكأن شيئاً يربط بين هذه العمارة، ومناماتها، وحارسها.

جالت على قدميها إلى مكان ليس بعيداً عن المقهى الذي شربت فيه قهوتها هذا الصباح، ثم أقفلت عائدة تمشي الهوينا إلى منزلها وعلى محيّاها ابتسامة هادئة. من حيث هي بانت العمارة الخضراء بلون مختلف وهيئة مختلفة. رأتها أكثر جمالاً مما اعتقدته بناء بشعاً. رأتها تشبه بالفعل جسد إنسان يرتقي إلى الأعلى، إلى مكان أسمى مما هو على الأرض.

أكملت طريقها وهي تلفّ جسدها بيديها وتسير بسكينة لم تعرفها من قبل. لم تكن طريقة مشيها هي الهادئة وحدها، بل إن داخلها كان الهدوء كله. كانت الساعة تقترب من منتصف الليل، وأضواء السيارات البعيدة، التي تشبه مقدمتها وجه إنسان، لا تزال نشطة في هذا الوقت المبكر لدبي.

عادت إلى حيث انطلقت ووقفت بجانب العمود. نظرت إلى

أعلاه حيث مصدر الضوء الساقط منه، لم تشعر بأنه وحيد تلك المرة أيضاً. لقد تغيّر شيء في داخل ياسمين.

«هل انتهت أيام وحدتي؟» تساءلت وهي تدندن لحناً كان من النادر أن تتذكّره. لحن كانت أمّها تغنّيه لها أيام الصفاء بينهما. أحسّت بشوق إليها وحنين، ومع ذكراها اشتمت رائحة البحر. تخيّلت أنها تسبح في ملاءة ضباب خفيف. بدا لها الجو شاعرياً كأنه الحلم، وكأن في الحلم صوتاً يشبه البحر. نعم إنها أمواج تصعد رويداً رويداً إلى شاطئ رملي. كان الصوت يكبر ويكبر قبل أن يخمد فجأة وينسحب إلى الظلمة في البعيد. لقد جرفت الأمواج السمكة الوحيدة التي ألقتها ذات يوم على شاطئ ذاكرتها، السمكة الميتة. لقد رحل «سليم»، وهذه المرة إلى عمق لا وصول إليه.

«هل كان ذلك بتأثير «أنا» الذي التقيته قبل ساعات؟». فكّرت وهي تستند بظهرها إلى عمود النور تنظر باتجاه الأفق البعيد. رأت ضوءاً كبيراً يصدر من هناك. شعرت به يشعّ من داخلها هي.

لم يكن هناك أحد في البهو، لا أفتاب، ولا الحارسان الآخران. وقفت أمام الكاونتر الصغير. تخيّلت أفتاب جالساً في تأمّله، وهي تقف قبالته كطفلة أمام معلّم كبير. لن تعرف ما تقول لو رأته، وبماذا تخبره؟ هل تحدّثه عما يتحوّل في داخلها، أم عن قصة «أنا» التي لا تزال في بدايتها؟ فكرت أنه ربما استطاع بأفكاره الكبيرة التي تسكن رأسه الصغير أن يجيبها عن سؤال تستعجل جوابه «هل «أنا» هو من أنتظر؟»، لكن كيف لأفتاب أن يجيب عن سؤال هي وحدها من يحمل جوابه في داخلها؟

فكّرت ومضت إلى شقتها. فور إغلاقها الباب، عشيق المرة الواحدة، جاءها اتصال من صديقتها القادمة من فرنسا. اعتذرت عن اتصالها في هذا الوقت المتأخر، فقد أرادت أن تطمئنّ على أحوال صديقتها بعد أن لمست شيئاً غريباً في صوتها عندما اتصلت بها في وقت سابق، وأكّدت على حضورها بعد يومين. كررت ياسمين ترحيبها السخي ومضت تتهيأ لفراشها.

قبل أن تتمدد على سريرها وقفت تتأمّل العمارة الخضراء. كانت تتألق كما رأتها قبل دقائق من الأسفل. ليس شيء واحد بدا متغيراً في تاريخ ياسمين تلك اللحظة، بل جملة أشياء. ولم تعرف هي ما إذا كانت الأحداث المتسارعة الأخيرة في حياتها سبب ذلك.

نامت تلك الليلة كطفلة. لم تر شيئاً في سباتها، لكنها سمعت أصواتاً كثيرة. كان الحلم أصواتاً بلا صور. في الصباح تذكّرت ما حلمته الليلة الأولى التي نسيت فيها اسمها، عندما سمعت أصوات أسماء غريبة للمرة الأولى. لقد أدركت أن ما بين تلك الليلة التي بدت لها بعيدة واللحظة التي أفاقت فيها الآن، خطوات قدر جديد يتشكّل في حياتها. وعلى نحو ما استعادت كلمات جميلة قالها «أنا» في لقاء البارحة، فأخذت تكررها كما لو هي تعيش نشوة عروس دخل بها عريسها.

لم تكن ذاك الصباح بهذا النشاط وبتلك السعادة من قبل. تناولت إفطاراً بتروّ وشهية، ولبست أجمل ثيابها بهدوء، وغادرت شقتها بذات الهدوء كمن لا تريد أن توقظ حبيباً لا يزال نائماً على سريرها. عندما وقفت أمام كاونتر الحارس الذي لم يكن هناك، كانت تبدو ياسمين أخرى غير تلك التي كانت بالأمس.

«حسن» قالت بصوت شبه مسموع واستدارت تغادر عمارتها، تعلوها ابتسامة كبيرة. في الطريق إلى عملها عرّجت على أحد المقاهي، واشترت كوباً من الكافيه لاتيه، وأكملت طريقها.

«على ماذا اتفقنا البارحة؟». فكّرت وهي تقلّب في رأسها سؤالاً عن موعد لقائها القادم بـ«أنا». لكنها تنبّهت إلى أن الهدوء الذي ما اعتادته في صباحاتها، لا يسير جنباً إلى جنب مع «أنا» الذي كان يأتي ويختفي. وقدرت في لحظة تفكيرها تلك، أنه، وإنْ كان بلا حضور طاغ، حتى الآن على الأقلّ، فقد كان بأية حال يأتي ولو قليلاً. وتساءلت لماذا هو تحديداً؟ فقد صدّت رجالاً كثراً في حياتها، وحتى قبل أن يجمعها عشاء بأي منهم. بل إن بعضهم كان أفضل من «أنا»، «لكن أفضل في ماذا؟».

لم تملك جواباً وما كانت تعتقد أن أفتاب يملكه. ثم، وبما يشبه الوحي، أخبرها شيء في داخلها أن الأمور قد تتغير، لكن لا تعرف في أي اتجاه.

مضى نهارها ذلك اليوم هادئاً كما كانت هي. لم تهرول ولم تفقد حماسها. كانت تشبه وردة تخشى أن تُسقط هزّة عنيفة أوراقها التي بالكاد جمعتها في باقة زيّنت بها داخلها. تلقت اتصالين من «أنا». الأول كان قصيراً، لكن الثاني الذي أتى بعد ربع ساعة، استمر لأكثر من نصف ساعة، وهي فترة زمنية تعدّ استثنائية لياسمين مع رجل لم تتأكّد مشاعرها تجاهه بعد، وازدادت حيرتها.

أحسّت ياسمين التي كانت كقلعة موصدة الأبواب، أنها قد فتحت أحد أبواب قلعتها لرجل دون أن تعثر على الجواب لِمَ هو تحديداً؟ اكتفت بتحريض أفتاب وإحساس سطحي أخبرها أن

«أنا» فرصة جديدة بالانتظار. «أنا» الذي أتى بعد أربعة أعوام من الوحدة، لا بد أن يكون فرصة تستحق أن تشغل مكانها الصحيح في داخلها. لكنّ، وقبل أن تتوالى صورة وراء أخرى، أمسكت فجأة عن التفكير، فما أرادت أن تبني آمالاً كبيرة بالاعتماد على عشاء واحد وبضعة اتصالات.

في المساء، وفيما هي تصعد درجات مدخل عمارتها بهدوء، أتاها صوت أفتاب من خلف قامة رجل أشقر عملاق يقف قبالته. تذكّرت أنها رأت الرجل من قبل في بضع مناسبات وهما يصعدان أو يهبطان المصعد معاً. تركتهما حتى فرغا، فألقت تحيّتها على الرجل الذي تذكّرت اسمه، فبادلها التحيّة قبل أن ينصرف سريعاً. نظرت إليه وهو يهرول عبر الدرجات الأربع نزولاً، وابتسمت، كما ولو كانت ترى نفسها.

نظرت إلى أفتاب الذي بقي واقفاً ينظر إليها بابتسامة كبيرة

«أرى السعادة في عينيك» قال وهو يميل قليلاً إلى الأمام.

«نعم.. يبدو أن لأفكارك تأثيراً عليّ».

اكتفى بهزّة من رأسه وابتسم.

«حاولت أن أنظر إلى الأشياء بصورة مختلفة.. بصورة.. ليست كتلك التي اعتدت أن أرى الأشياء من خلالها»، قالت وشردت قليلاً.

«هل رأيته البارحة؟»

«نعم.. كان اللقاء جيداً».

«كلما أعطيت الآخرين فرصتهم، كانت فرصتك تكبر في داخلك؟».

«لكنني حائرة قليلاً. لست أعلم.. بالأمس سمعت كأن شيئاً في داخلي يطمئنني بأنه رجل مناسب، وأنه...» وقبل أن تكمل جملتها سألته في حماسة «لقد قلت لي أن أستمع إلى صوت يأتي من داخلي فيكون هو دليلي، أليس كذلك؟ هل تعتقد أن هذا ما حدث معي؟».

«حسن» تمتم أفتاب «يبدو أنه إنسان جيّد، أما بخصوص الصوت، فأنت وحدك من يستطيع أن يقول إن كان صوتاً حقيقياً أم هو إحساس تجسّد في صوت؟»

«ماذا لو كان إحساساً قوياً، ألا يكون هو صوتنا الداخلي؟ ألا تثق أنت بإحساسك؟».

«الأحاسيس القويّة قد تخدعنا إنْ أتت انتظاراً لشيء نحتاج إليه. عندما تكونين جائعة فإن رائحة الياسمين ستبدو كرائحة الشواء. من أجل ذلك قلت لك لا تتوقّعي شيئاً. سنتألم كثيراً إنْ توقّعنا الكثير من أناس لم نعرفهم بعد ويزداد إحساسنا بالوحدة. دعي الأيام تكشف عن الوردة غطاءها دون أن تعبث بها أصابعنا».

صمتت ياسمين وقد هدأت حماستها ثم قالت في تردّد «له جاذبية من نوع خاص، وفي ملامحه ما يريحك. لست أعلم إن كان هو إحساسي من يقول ذلك، لكني شعرت به يختلف عمن تعرفت إليهم من قبل، إلاّ أنه مغرور بعض الشيء».

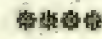
«الغرور جزء من نجاح الإنسان» أجابها أفتاب وأضاف في تحليل عجيب «لعل معظمنا يريد أن يكون كذلك لكنه لا يعرف كيف». ثم سألها «هل تخافين اندفاعته نحوك؟».

«نعم. فقد عرفت إلى أين تنتهي اندفاعات الرجال».

«أتفق معك في الأمر، لكنه يبحث عن فرصته هو الآخر؟».

«أعرف أن الشباب يندفعون، أما هو، في عمره هذا، عمره الكبير هذا ف...».

توقّفت ياسمين وهي تنظر إلى شيء في عيني أفتاب أسكتها عن الكلام.



أمضت يومها تفكّر في ما قاله صديقها الهندي معلقاً على لقائها الأول بـ «أنا». لقد شجّعها على المضي قدماً مكرراً عليها ما سبق أن ردّده «عندما نشرع في قراءة قصة لا نفكّر في نهايتها قبل أن تشدّنا إليها». تركها تفكّر قليلاً قبل أن يضيف «أنت تفكرين في نهاية شيء لم تبدئي به بعد لكن ليس ذاك ما يقلقني ما أراه هو أن في هذا الرجل كل ما تحبّين، رغم ذلك أنت أقل اندفاعاً منه. ليست اندفاعته الكبيرة وليدة انفعال رجل لم ينضج بعد، ولا هو تحفّظك وليد شكّ فيه. أعتقد أنكما في عمرين مختلفين، وهذا هو السبب».

«هو لا يكبرني كثيراً» قالت ياسمين قبل أن يقاطعها قائلاً «لم أقصد عمر الزمن، بل عمر العاطفة».

«لست أفهم».

«بعضنا له عاطفة هي من النضج بحيث تكون أكبر من عمره، وبعضنا توقّفت مشاعره عند عمر أصغر من عمره هو دون أن يدرك ذلك. هؤلاء يخيفونني».

«هل تقصد أن عاطفته قد لا تكون ناضجة بما يكفي؟».

«أو عواطفك أنت ربما»، قال ومضى يشرح «يقاس عمر

الإنسان بتجاربه. لك تجاربك، وقد تكون له تجارب أكثر أخفاها عنك، أو آثر أن لا يتحدّث بها ولو صرّح خلاف ذلك. «أنا» قد يكون أكثر نضجاً منك».

«لكن.. ألا ترى أن اندفاعه يكشف عن قصور في فهم المرأة؟».

«ومن قال إن المرأة تكره رجلاً يندفع تجاهها كنهر جارف؟». تساءل أفتاب مبتسماً ومضى يقول «اندفاعه الذي أخافك حيّرني أول الأمر. لكنّ بقاءك حيث أنت وتحرّكه هو يجعلانني أقول إنك لم تبدئي قراءة القصة بعد. ابدئي وستكتشفين بنفسك لاحقاً إنْ كان هو من تنتظرين. ستعرفين أيضاً إنْ كانت عواطفك قد نضجت بمقدار ما أنت عليه الآن».

باتت ياسمين أكثر قناعة بأن حواراتها التي تتم وهي واقفة على قدمين، في بهو بنايتها، بمثابة ضوء فنار يدلّ سفينتها التائهة إلى الطريق الذي يجب أن تسلكه.

ومع أن شخصيتها ليست من النوع الذي يتخذ قراراً حاسماً تحت وطأة وحدة قاسية أو ضعف عاطفي، فقد عزمت على أن تمضي في الطريق مع هذا الـ «أنا»، متبعة في ذلك إحساسها، ورأي أفتاب، وإيماناً أخذ يزداد رسوخاً بأن الحياة فرص تتكرر كغروب الشمس وشروقها.

أدركت كذلك بأن الفرص التي تكرر نفسها تقابل نفسها أيضاً، ففي الوقت الذي يستحقّ فيه شخص مثابر عنيد مثل «أنا» فرصته، فإن فرصته تلك ستخلق فرصتها هي من تلقاء نفسها.

عندما أخبرت صديقها الهندي بما فكّرت، ابتسم وردّد رأيه

ذاته «والفرص تصنع بعضها أيضاً». كان ذلك صباح اليوم التالي الذي اقتصر حوار البهو فيه على إضافة أخرى من أفتاب «لا تبحثي عن حبّ تحاربين به وحدتك، بل عن حبّ لذاته، فهو كالسعادة تقصد لذاتها».

«أنت لا تعرف النساء كثيراً يا عزيزي أفتاب. بعد التجربة الأولى لا يبحث قلب المرأة عن الحب وحده، بل عن شريك يكمل معها الطريق». قالت في سرّها. وانصرفت للقاء عميل ينتظرها.

في المساء كانت ياسمين تتكئ على حاجز حديدي في صالة قدوم المسافرين في انتظار صديقتها القادمة من فرنسا. رأت في زيارتها فرصة كي تشاركها في أفكارها الأنثوية كامرأة، بخلاف أفتاب الذي يشاركها في أفكار إنسانية كرجل. لكنها لم تلبث وهي تقود الضيفة إلى شقتها، أنْ تساءلت في سرّها إنْ كان عليها أن تستنير برأيها هي الأخرى أم تكتفي بنصائح أفتاب الرجل الغريب. في أول عشاء جمعهما، في أحد مطاعم القرية الإيرلندية، وجدت ياسمين نفسها تنطلق من ذكريات قديمة. كان المكان الذي يشبه حانات لندن القديمة يغصّ بالزوار، ومعظمهم، بل كادوا يكونون كلهم، إنكليزاً أو إيرلنديين. غمرت المكان نسمة هواء باردة، ومع قليل من ضباب دبي النادر، كان للزائر أن يقسم بأنه في لندن.

لهذا المكان تحديداً وقع خاص على الصديقة القادمة من باريس. ففيه تفتّقت قريحتها وفاض نهرا عينيها وهي تروي لياسمين قصتها مع زوجها الذي عانت من بخله أولاً وخيانته ثانياً. يومها لم تنصحها ياسمين بشيء، وهي عادة اكتسبتها منذ

وضعت قدميها في دبي أن لا تتدخل في شؤون أحد.

عادت الأيام تجمعهما في المكان ذاته وكأنهما التقتا فيه البارحة فقط. استرجعتا بعض ذكرياتهما، ومن الماضي إلى الحاضر، فقصة علاقة جديدة حدثت بها الصديقة ياسمين.

«هل تحبينه؟» سألتها

«أنا سعيدة معه» صمتت قليلاً وهي تنظر إلى الساقي يضع مشروبين على طاولتهما. ثم أضافت «هذا يكفيني الآن.. هل تعتقدين أن من السهولة العثور على رجل بنصف ما تتمنين في زمن العبث هذا؟». مدّت الصديقة رأسها كمن تهمس في أذن ياسمين «لن أضيّع فرصتي، ولو كان يكبرني بعشرين عاماً».

«واو، عشرون عاماً؟» سألت ياسمين بدهشة.

«لا عليك» ربتت الصديقة على يدها «الأمان الذي أجده معه لم أجده مع زوجي الأول الذي كان يقارب عمري. الرجل الكبير حكيم بما يكفي ليحتفظ بامرأة تحبّه».

شردت ياسمين إلى ما قاله أفتاب عن اختلاف العمر بين الزمن والعاطفة، وبدت في شرودها المتقطّع وإصغائها كمن تبحث في أجوبة صديقتها عن أجوبة لها هي.

«صدّقيني». قالت الصديقة «ليس هناك عمر مناسب للزواج، المهم أن يكون هناك رجل مناسب» وأشعلت سيجارة «الآن، حدّثيني عنك أنت».

«حسن.. هو وسيم، ورزين.. و»

«وماذا؟ هيّا قولي».

بعد تردد لم يطل، أخبرت ياسمين قصة «أنا» لصديقتها،

ومن الحديث عنه إلى الحديث عن أفتاب. وهي إنْ تحدّثت عن العاشق الجديد في خمس دقائق، فقد تحدّثت عن أفتاب لأكثر من ربع ساعة.

«أول مرة أرى فيها امرأة تقرر حياتها بناء على نصائح حارس هندي».

«لكنه ليس مجرّد حارس» أجابتها ياسمين.

«حسن، ليس مجرّد حارس، أخبريني عن «أنا» وانسي أمر الحارس».

«هذا كل شيء عنه.. وكما قلت لك، أشعر أنه ناضج وكريم ومناسب حتى الآن»..

«إذاً لا تضيّعي فرصة تندمين عليها فيما بعد».

«لن أندم ما دامت الحياة فرص تتكرر».

«من قال إن الفرص تتكرر، بل هي نادرة، وما ذهب لا يعود» قالت الصديقة.

أوقفت ياسمين الحوار بصمتها، فقد بدا أنه يزعزع أساسات أمل وضعه أفتاب في داخلها. أشعلت سيجارة ودفعت بالحديث إلى منحى آخر حتى انصرفتا.

في البيت، وهما مستلقيتان على السرير، وقبل أن تذهب كل واحدة إلى أحلامها، سألت الصديقة عن بعض الأصدقاء القدامى. «لقد عشت أنت في دبي» قالت ياسمين «وتعرفين كيف تسير الأمور هنا. المدينة تكبر والأصدقاء يتفرّقون». وأضافت «في دبي، كل يهرول وراء رائحة المال النفّاذة، فلا ترين سوى أجساد تصارع ذاتها وهي تبحث عن مصدر الرائحة».

«وهل أصبحت أنت مثلهم؟».

نظرت ياسمين إلى صديقتها وهزّت رأسها بالإيجاب «أحياناً أقول في نفسي إني لم أتغيّر، ولم أنعزل عن الناس، لكني». ندّت عنها تنهيدة ساخرة وأضافت «أتخيّل الأمر كما لو كنا عمياناً يسير جميعنا باتجاه واحد دون أن يميّز بعضنا بعضاً».

صمتت ياسمين لثوانٍ قبل أن تواصل حديثها «هل تعرفين.. لست أعتقد أن الحب يرتع هنا. كلنا يعتقد أن الأموال تنبت مع أوراق الشجر لموسم قصير فنتسابق إليها قبل أن يسبقنا للقطاف أحد أو ينتهي الموسم. نحن لا نحبّ هذه المدينة بل نحبّ المال الذي نعتقد أنه يرشح مع رطوبة الصيف ويسقط من السماء مع أمطار الشتاء».

«الناس تعلم أن الفرص في الحياة لا تتكرر يا عزيزتي. وها أنت تؤكدين ما قلته لك. لا علاقة للأمر بدبي أو نيويورك، فنحن نعيش على كوكب واحد نركض فوقه في حلقات لا تنتهي، والطمع الذي ترينه هنا موجود هناك. الحب ذاته موجود في كل مكان، غير أن الناس غائبون، إنهم ظلال بشر لا أكثر. من أجل هذا عندما يأتي الرجل المناسب لا تدعي الفرصة تفوتك لأنها لن تتكرر كثيراً. صدّقيني لن تتكرر كثيراً». قالت الصديقة وهي مستلقية على ظهرها تنظر إلى سقف الغرفة.

نظرت إليها ياسمين وقالت: «ذلك رأي متشائم» وقبل أن تسمع جواباً نهضت بنصف جسمها، وأضافت «حتى لو لم تتكرر الفرص، فليس من الحكمة أن نربط سعادتنا برجل، ألا تتفقين معي؟».

«لا.. لا أتفق معك. إن أحسنا الاختيار فإما أن يزيد الآخر

سعادتنا وإما أن تكتمل السعادة بوجوده. وأنت راشدة لتحسني اختيارك. الرجل المناسب لا يتكرر كل يوم. أنت تقولين إنه ناضج وكريم وصادق، كم بربّك عدد الرجال الناضجين اليوم؟ ثم حتى لو كانوا بعدد حبّات المطر، فما أدراك أنك ستلتقين أحدهم؟ عزيزتي، أنت لست المرأة الوحيدة في العالم، والفرص التي تضيع منك لا تعود بل ستذهب إلى امرأة أخرى؟»

لم تعلق ياسمين على كلام صديقتها، وأسندت ظهرها إلى سريرها ورفعت ركبتيها تحضنهما. بدت شاردة قبل أن تنظر إلى صديقتها وتسألها «حسن، لنقل إن كلتينا مُصيبة في رأيها، ماذا تفعلين لو كنت مكاني؟».

«لن أدعه يفلت من يدي». قالت الصديقة في حزم وسرعة. وأضافت «دعك من أفكار أفتاب، فهو رجل لا خبرة له في الحياة أكثر من حراسة العمائر، وإنْ صدق في أن الفرص تتكرر فلعل ذلك يحدث مع الرجال لا النساء. هؤلاء ينتقلون من امرأة إلى أخرى، يبحثون عمن توافق أمزجتهم، فإن وجدوها أو استمر الترحال من فراش إلى فراش، وأنت لن تفعلي ذلك». ثم نظرت الصديقة إلى ياسمين وسألتها بخبث «هل جرّبته؟»

«أجرب من؟»

«هذا الذي اسمه «أنا»».

«لم يحدث شيء بيننا إنْ كان هذا ما تعنينه» أجابتها ياسمين وهي لا تزال تضمّ ركبتيها إليها، ثم نظرت إلى صاحبتها بابتسامة وديعة وانزلقت تحت لحافها «تصبحين على خير».

****

في صباح اليوم التالي، وقفت الصديقة تتأمل الساعة الحائطية في الصالون الصغير.

«لماذا هي بعقرب واحد؟».

«لا عليك». أجابت ياسمين وانصرفت لإعداد إفطارهما. أمضتا ساعة كاملة جالستين الواحدة قبالة الأخرى إلى الطاولة الصغيرة في المطبخ، تنتقلان من موضوع لآخر حتى وصلتا إلى «أنا».

عندما سألتها صديقتها «حتى الآن لم أستطع أن أحدد حقيقة شعورك تجاهه»، أجابتها ياسمين بعبارة مختصرة «سأعرف لاحقاً».

«ما الذي تنتظرين بل ما الذي تريدينه تحديداً؟».

«بعض الوقت ربما».

بتلك العبارة انتهى حديث الإفطار، فنهضت ياسمين تزيل الأطباق بتروٍّ، داعية صديقتها إلى لبس ثيابها لتغادرا.

من داخل حجرة نومها جاءها صوت صديقتها «جميلة هي العمارة الخضراء».

لم تعلق ياسمين وهي تضع قفازاً مطاطياً لغسل الأطباق. لكنها ما لبثت أن أدارت ظهرها ونظرت إلى حيث تزرر الصديقة قميصها أمام باب حجرتها «كيف تعرفين إنْ كان الرجل الذي أمامك يحبّك بصدق؟».

«إن أخبرك أسراره» أجابت الصديقة واقتربت من ياسمين «اسمعيني يا عزيزتي، أنت محظوظة إنْ وجدت رجلاً يبذل كل هذا الجهد كي يقترب منك».

«لكن أفتاب يقول».

«أفتاب مرة أخرى؟ حكيمك هذا قد يكون مصيباً أو مصيبة بشرية. لكن حتى هو يتفق معي في أن تعطي نفسك فرصة الاكتشاف، فإنْ صدق أفتابك هذا فسيخلق حبه حبّاً مقابلاً له. ليكن الأمر هكذا حتى نرى ما سيحدث».

«ماذا يفترض أن يحدث» سألت ياسمين بخبث.

نظرت إليها الصديقة ووضعت إصبعاً فوق إصبع في دلالة جنسية.

«ما هذا.. آه فهمت. لقد أخذك عقلك إلى المكان الخاطئ» قالت وعادت إلى أطباقها.

«حسن، إلى أين سنذهب الآن؟».

غادرت الصديقتان الشقة وهما تتبادلان حديثاً يقفز من موضوع لآخر. ضغطت ياسمين أزرار المصعد إلى الأسفل وقالت تقطع حديثاً بعيداً لصديقتها «سترينه الآن».

في بهو البناية، كان يجلس هناك مع كتابه يقرأ فيه. نهض وهو يراهما مقبلتين عليه. قدمته ياسمين لصديقتها التي اكتفت بابتسامة تصنعتها. تبادلت معه حديثاً سريعاً بدا للصديقة كما لو كان مليئاً بالرموز.

«يبدو لطيفاً وهو يهزّ برأسه» قالت الصديقة بخبث وهما في طريقهما إلى مركز تجاري تبدآن فيه تجوال اليوم.

«إنه كذلك بالفعل.» صمتت ياسمين قليلاً ثم تابعت «إنه رجل عميق».

«رأيت ذلك في عينيه» ردّت الصديقة في تهكّم.

لم تأبه ياسمين لتعليقها وأضافت «إنه مثل حكيم هندي.. أنظري إلى ما هو أبعد من الشكل».

«لم أقيّمه بشكله».

«بلى فعلت.. هذا الهندي القصير يملك تصالحاً مع ذاته يفتقر إليه أغنى الناس وأقواهم. أليس ذلك غريباً بالفعل؟».

«الغريب هو أنت يا عزيزتي».

«هل من الغرابة أن يتحدّث أحد مع حارس هندي؟». تساءلت وهي تفتح سيارتها دون أن تنظر إلى صديقتها. وقبل أن تنطلق أخذت ياسمين تتأمّل في العمارة الخضراء لبرهة قصيرة، فيما صديقتها تعبث في جهاز التسجيل.

أمضتا بعد الظهيرة في مركز تجاري قريب، ومنه انتقلتا إلى آخر أكبر. تناولتا الغداء في مطعم لبناني، وأوغلتا في حكايا الماضي تارة، وآمال المستقبل تارة أخرى.

نظرت ياسمين إلى ساعتها فسألتها الصديقة «هل أنت مرتبطة مع «أنا»؟ إن كان الأمر كذلك فسأتدبّر أمري.» قاطعتها ياسمين «كنت قد وعدته أن نتناول العشاء معاً قبل أن يغادر في رحلة تمتدّ أسبوعاً، وهي فرصة كي تتعرفي إليه. لن نقضي معه وقتاً طويلاً إن أردت، وبإمكاننا أن نكتفي بفنجان قهوة؟».

«ألن يزعجكما وجودي؟» سألتها الصديقة.

ابتسمت ياسمين، وأجابت «يسعدني أن أسمع رأيك به».

لم يكف هاتف الصديقة عن التوقّف باتصالات من صديقها المسافر ووالدتها. ما كانت ياسمين تحبّ التصاقاً برجل لا تزال تكتشف أغواره، كما هو حال صاحبتها، لكنها آثرت الصمت.

بالنسبة لها كان الأمر مستحيلاً فالالتصاق بالآخر، دون معرفة عميقة، يبعدنا عنه بقدر ما يقرّبنا إليه.

في المساء، تهيّأت الصديقتان للقاء «أنا» الذي اتصل مرة واحدة يؤكد على الموعد. أخبرته ياسمين أن صديقة ستكون معها. لم يعترض لكنها أحسّت بنبرة عدم رضى في ترحيبه المتكلّف.

كان «أنا» بالنسبة للصديقة كما وصفته ياسمين تماماً. ومع أن العشاء امتدّ لأكثر من ساعتين في مطعم أنيق يطلّ على البحر، فقد عجزت الصديقة عن قراءة ما في رأس ياسمين التي بدت تلك الأمسية فاقدة لعفويتها. لكنها كانت واثقة بشيء واحد، هو أن «أنا» يبدي اهتماماً عظيماً بها رغم تكلّفها. وقد عزت ذلك، على نحو ما، إلى وجودها هي بين اثنين بالكاد تعرّف أحدهما على الآخر.

بعد العشاء، عرض «أنا» الانتقال إلى مكان آخر. رحّبت الصديقة، وصمتت أنا. «.. ما هو رأي السيدة الجميلة؟». سألها.

بعد نصف ساعة، كان الثلاثة يجلسون إلى طاولة في الطابق الرابع والخمسين من أبراج الإمارات. كان منظر المدينة من هذا الارتفاع أخاذاً. جالت الصديقة في المكان المشرف على معالم المدينة. وقد رأتها فرصة تخلو فيها ياسمين مع صديقها. كان المنظر من هنا بديعاً. يطلّ على كل شيء في المدينة الصاخبة. أخذت الصديقة تتأمّل كل بقعة ضوء، وكل معلم، وتتذكّر أيامها التي عاشتها هنا قبل عامين. شعرت بأن الكثير من معالم المدينة قد تغيّر في عامين... طرق جديدة، وناطحات سحاب نبتت وسط الرمال، وامتدادات بشرية لا يصل النظر إلى منتهاها في عمق الصحراء. كأن المدينة التي تراها أمامها ليست تلك التي

عرفتها بالأمس القريب. وفي خاطرة سريعة، قدّرت الصديقة سبب تمسّك ياسمين بأفكار الحارس الهندي أفتاب، حيث هو نموذج حيّ لإنسان لم تغزر به المدنية بعد. عندما انضمّت إليهما بعد وقت أحسّت بأن لوحاً من الثلج يفصل بين ياسمين وعاشقها. حاولت أن تتحدّث في مواضيع شتى، بعضها ساخر وقليلها جاد. وقد أضفى وجودها حيوية احتاجها كلاهما.

بعد أن غادر ثلاثتهم المكان الذي بقي مزدحماً حتى الثانية بعد منتصف الليل، وفور أن أصبحتا على انفراد، صرخت الصديقة مهلّلة «يا له من رجل رائع».

****

في طريقهما إلى المطار، دار حديث بين الصديقتين أشبه بندوة عشاق.

«ليتك تبقين فترة أطول» قالت ياسمين.

«ستكون لي زيارة قريبة بعد رأس السنة». صمتت لحظة وهي تلتقط جواز سفرها وتذكرتها من حقيبة يدها الصغيرة ثم تابعت تقول «أتمنى أن أجد علاقتك قد تطوّرت باتجاه ما، فإمّا الاستمرار فيها وإمّا الانصراف عنها، وإنْ كنت لا أرى داعياً لإبطاء القرار. أما آراء صديقك أفتاب فدعيني أقولها ثانية لا تجعلي». قاطعت ياسمين صديقتها «أفتاب لا يقدم نصائح لي أنا كياسمين، بل لعله يقول الشيء ذاته لكل من سأله رأياً. ولست أعتقد أنه يخترع الأشياء بل يكشف لنا داخلنا الذي لا نعرفه».

«لنفترض أن الأمر كذلك، لكن لا تجعلي من كلمة يقولها حارسك الهندي نصاً مقدّساً بل اتبعي حدسك. إن شئت أن

تسمّي الحدس صوتك الداخلي، فليكن، المهمّ أن تفعلي ما أنت مؤمنة به لا ما يمليه عليك رجل غريب». وبحماسة مثيرة أضافت «هل تنتظرين أحداً آخر؟ لأنه بغير سبب مقنع لست أرى ما يحول دون ارتباطك برجل مثل «أنا» رائع لا ينقصه شيء، حقيقة أقول إنْ لم يكن هناك من سبب آخر، فلن أفترض أنك ما زلت تفكرين بـ«سليم». وكم أتمنى لو قلت إني مخطئة».

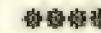
«بالتأكيد أنت مخطئة، فسليم قد مات منذ زمن» قالت ياسمين في حسم دون أن تلتفت إلى صديقتها، فمضت هذه تقول «حسن، إذاً ابحثي عن سبب لتردّدك، فلعلك ترين في الرجل ما لا أراه، المهمّ أن تقرري. إنْ كان من شيء يستحقّ الخوف، فهو هذا التردد إذ سيتكرر الأمر مع أي رجل آخر، وإنْ صدق أفتاب في ما قال بشأن الفرص التي تتكرر، فهي لن تفعل ذلك مع إنسان متردّد».. نظرت إليها ياسمين ولم تعلّق واختتمت الصديقة حديثها قائلة «أنت تضيّعين هويّتك بنفسك، وليست هذه المدينة السريعة من تُدان بذلك».

كانت ياسمين شاردة التفكير. وفي محاولة لقطع صمت بدا طويلاً، قالت الصديقة ما يشبه اعتذاراً «لا تغضبي من صراحتي، لكنني رأيت كيف تتخبّطين في أفكارك، والفرصة التي أراها أمامك تحتاج إلى حسم».

ابتسمت ياسمين وردت عليها بهدوء «أقدّر صراحتك، وأعلم تماماً مقدار حبّك وخوفك عليّ. اطمئني، كل شيء سيكون على ما يرام».

«ها قد وصلنا على ما أعتقد، لا داعي لأن تنزلي معي، فأنا

لا أحبّ لحظات الوداع، سأنزل إلى أمام باب المغادرة» قالت الصديقة وهي تلتقط حقيبتها الصغيرة من المقعد الخلفي. تعانقتا طويلاً، ثم ترجّلت ونظرت في عينَي ياسمين، وقالت «لأرسطو حكمة تقول إن وطن الإنسان حيث يرتاح، وأنا أقول إن وطن الإنسان حيث يوجد الحب». أطلقت قبلة في الهواء واختفت وسط عشرات المسافرين.



أخذت حوارات ياسمين وأفتاب، في الأيام التي تلت، تختصر إلى تحايا الصباح والمساء العابرة. فقد انصرفت إلى مواعيد متصلة في النهار، ولقاءات متقطعة بـ «أنا» في المساءات فور عودته من سفره. لم يحاول الحارس أن يسألها عن شيء لا تبادر إلى أخذ رأي فيه، وبقي يمضي الساعات إمّا منكباً على وجهه يقرأ بلا كَلَل، وإمّا صامتاً وراء الكاونتر الصغير.

كانت ياسمين تحسّ بطمأنينة كلما رأته مكانه، وعلى الهيئة ذاتها. لم تعرف سبب ما يدخله فيها أفتاب من إحساس، وقد عزت الأمر ذات مرة إلى علاقتها بـ «أنا» وتردّدها في اتخاذ قرار حاسم إمّا الانسحاب وإما المضي في الطريق إلى نهايته. وكثيراً ما وجدت نفسها تقرر هذا ثم ذاك في وقت واحد. كان تحريض أفتاب وحاجتها إلى ما يملأ وحدتها يدفعانها إلى التفكير بـ «أنا» كما لو أنه الرجل الوحيد على الأرض، وقد كان في ذلك تحديداً ما يخيفها. وفي لحظات تفكير عميقة، بدا لها الأمر أشبه بالفضيلة التي إن أتت بفعل الخوف من العقوبة فقط فلن تكون كذلك بالفعل، وهي لا تريد أن تتخذ قراراً بفعل الخوف من

الوحدة فقط إنْ لم تكن معززة بقناعة اختيار هذا الرجل تحديداً دون أي رجل آخر.

«أحسّ بك تتقدمين خطوة وتتراجعين خطوات، ولست أرى تقدّماً في علاقتنا» قال أثناء عشاء جمعهما في أحد الفنادق «إن كنت أسبب إزعاجاً أو بدا لك ما يستوجب أن أنسحب من حياتك فسأحترم رغبتك».

«ما الذي جعلك تحسّ بذلك؟».

«أنت لا تتصلين بقدر ما أتصل بك، ولا تهتمين كما أهتمّ. أنت لم تسألي حتى هذه اللحظة شيئاً عن حياتي ولا تعرفينها، ولست تخبريني بالمثل شيئاً عنك أكثر مما يعرفه زملاء العمل».

«حياتك ملك لك، وحياتي ملك لي». أجابت ببرود، لكنه أحسّ بتصنّعها فردّ بنبرة أكثر حدّة «هذا ما قصدته بالفعل.. فمعرفتك بالآخر تولده رغبة الاقتراب منه.. ألا تتفقين معي؟ أنا مهتمّ بك كثيراً، ويهمّني أن أعرف كيف تفكرين بي».

«ماذا تريد أن تعرف؟».

«أي شيء أرى فيه ما يجمعنا».

أظهر «أنا» في تلك الأمسية حزماً لا تراجع فيه حتى بدت تفكّر جدّياً في الابتعاد عنه، ولو إلى حين. لكنها وجدت نفسها تقول «ليست هي مسألة عدم اهتمام أو تردد، كما أنني».. صمتت قليلاً «كما أنني من النوع الذي يفضل التروّي في كل شيء».

تلفت يميناً وشمالاً حائراً لا يعرف ما يقول «لست أعتقد أن هناك تروّياً أكثر من هذا. أنت تقفين مكانك حتى هذه اللحظة وأنا وحدي من يتحرّك باتجاهك وتبتعدين كلما اقتربت منك.

لكني سأقول للمرة الألف، لكَ ولنفسي، لا بأس، لندع الأيام تعرّف أحدنا على الآخر من تلقاء نفسها، وإن كنت لا أعرف كيف ستفعل ذلك من تلقاء نفسها». صمت قليلاً ثم أضاف وهو يدنو منها «سأخبرك بعض الأشياء عني».. نظر في عينيها كمن يقرأ مدى اهتمامها بما سيقول. ومع أن شيئاً حماسياً لم يطل منهما، فقد انطلق في حديثه متجاهلاً برودتها «أخبرتك من قبل أني من عائلة صناعية قبل أن يطيحها الكساد، فاعتمدت على نفسي كي أبني ما أطمح إليه، هه.. هل تذكرين؟».

«نعم أذكر. أخبرتني بالقصّة من قبل».

«لا أريد أن أعيدها، بل أن أحدّثك عن بعض تجاربي في الحياة. ربما لا تعرفين أني كنت شقياً فيما مضى».

شدّت الكلمة انتباهها، وأخذت تصغي بتركيز.

«نعم، لقد كنت شقياً ولعوباً، وقد أخفيت عنك ذلك في لقائنا الأول».

«ولماذا تخبرني به الآن؟».

«لأني أحبّ أن تعرفي أن ذلك اللعوب الشقيّ الذي كان ليس هو من يجلس أمامك الآن».

«هل توقّفت شقاوتك أمامي؟».

«ليس كذلك تحديداً.. لكني.. لكني أعتقد أن على الرجل أن يتوقّف لحظة في حياته.. أقصد الرجل العازب، وأن يسأل نفسه ما الذي يريد من دنياه، وأي طريق يسلك، وماذا بعد أي نجاح يحققه؟».

رنّت عبارة «ماذا بعد؟» في أذنيها، وتساءلت في سرّها «منذ

متى يهتمّ الرجال بماذا بعد؟».

وكمن عرف بما تفكر به مضى يقول «نعم.. لا يمكن للرجل أن يستمر في لهوه للأبد. هناك شيء لا بدّ أن يأتي بعد ذلك. وإنْ كان الأمر محتّماً فليأتِ بالطريقة التي نختارها نحن».

«واو».. قالت في نفسها وهي تسحب سيجارة من علبتها، وتفكر كيف انكشفت أسرار الرجل الذي أمامها بسبب مناورة لم تبذل جهداً من أجلها، وقدّرت أن الرجال من الغباء أحياناً بحيث يعتقدون أن كشف أسرارهم يقرّبهم من المرأة.

«وحدة الرجل تفقده تدريجاً القدرة على التذوّق» قال وهو يشعل سيجارتها.

«التذوّق؟ خلت أن الصوت هو الأهم بالنسبة إليك.» سألته وهي تنفث الدخان بعيداً في الهواء.

«التذوّق هو حاسة الرجل الأهم. تذوق الطعام، تذوّق الشراب..»..

«وتذوّق النساء» قالت مقاطعة.

«تذوّق كل شيء يحيط بنا، كل شيء» قال وهو يحرّك يديه في الهواء كخطيب على منبر.

«كم الساعة الآن؟» سألته ببرود.

صمت ونظر إليها فاغراً فاه ويداه معلقتان في الهواء.

****

إن قُدّر لياسمين، حتى ذلك الوقت، أن تبني انطباعاً عن «أنا»، فهو إيجابي في معظمه. لم يعد شيئاً يشبه التنين كما تخيّلته في

المرة الأولى على الأقل. شقاوته الماضية لم تُثر خيفةً في نفسها، بل جعلته أعمق تجربة أمامها. كانت ثقته بالنفس تمنحها ثقة بالمقابل، ولو بقيت حتى تلك اللحظة متحفّظة في إخباره المزيد عن حياتها. كانت حريصة وحذرة أكثر مما يتطلّبه الحذر. وكثيراً ما تخيّلت أفتاب يعنّفها على تردّدها، وقد ردّد على سمعها ذات مرة أن «لا شيء يدمّر الإنسان أكثر من الندم والتردّد».

كان «أنا» يتعامل معها بطريقة معاكسة، ومشاكسة أحياناً. كأنه بذلك يردّ على تردّدها وعدم اهتمامها المصطنع دون أن يثير حفيظتها إلى درجة تبعدها ولو نصف خطوة. وقد بذل من أجل ذلك جهداً قلما يبذله رجل. «هل قدّرت له ذلك؟» سألت نفسها ذات مرة، وأحسّت بها تقول «نعم»، لم تكن متأكّدة بعدُ إنْ كان ذلك هو الصوت بداخلها ينبئها عنه. لكنها عندما كانت تعود إلى منزلها يختفي السؤال. كما لو أن حضور «أنا» يكون قوياً في داخلها عندما تراه فقط، ثم لا يلبث أن يختفي عندما يغيب.

ذات مساء، جافى النوم عينيها وهي تفكر بـ «أنا»، وتقلب أسئلة أعادت تدويرها في رأسها حتى بليت: «هل هو من أريد؟ هل هو الفرصة التي أنتظر؟».

لم تشأ أن تقحم أفتاب في جحيم أسئلتها المكررة تلك، واكتفت بإحساس الطمأنينة الذي تراه في عينيه كلما رأته مكانه. باتت أيضاً أكثر إيماناً بأنها وحدها من يملك جواب أي سؤال عنها، وأنها ستعثر عليه، مهما بدا صعباً، في مكان ما داخلها. لقد قال أفتاب ما يمكن أن يقال. ومعرفتها بذلك ساهمت في اختصار حوارات البهو إلى مجرّد تحايا مرور اعتيادية.

في أحد لقاءاتها بـ «أنا» في مقهى صغير داخل «مدينة

جميرا»، تحدّثا عن أفتاب للمرة الأولى.

«مممم... يبدو رجلاً مثيراً للاهتمام»، قال بنبرة لا تخلو من غيرة.

«إنه رجل كبير.» أجابته وقد أدركت مغزى نبرته، ومضت تتحدّث نصف ساعة بحماسة عن صديقها الهندي.

«لمَ تتحدثي عن نفسك أنت بهذه الحماسة من قبل»، قال.

دون أن تعلّق على ما قال، سألته «هل تؤمن أن الحياة فرص تتكرر؟».

«أعتقد أن الفرص الثمينة لا تعوّض. أنظري حولك، أصدقاء نعرفهم ولا نعرفهم أضاعوا فرصاً عجزوا عن تعويضها. فلماذا لم تتكرر معهم مرة أخرى؟ كيف تصدقين عجوزاً هندياً يعمل براتب ألف درهم أن الفرص في الحياة تخلق نفسها وتكبر؟ لو كانت كذلك لما بقي جالساً هناك يعمل في وظيفة متواضعة».

«لكنه متصالح مع ذاته وسعيد بعمله».

«أين هي السعادة في وظيفة كتلك؟».

«ليس في أي عمل ما يعيب، المهم أن تقبل ما أنت عليه، أن تتصالح مع ذاتك، عندها ستأتيك فرصة أفضل» ثم قالت بنبرة حادّة «حتى أنت، ولربما أنا أيضاً، أفتقد شخصية كتلك».

«واضح أنك تقدرينه بشكل خاص، لعله كما تقولين بالفعل»، قال بودّ يخفّف به حدّتها.

«إنه كذلك، نعم كذلك. لو استمعت إليه لعرفت ما أقصد».

«حسن، عزيزتي، لكن لا تدعي مسألة الفرص هذه تحدّد أفعالك وقراراتك في الحياة».

صمتت ياسمين، ولم تعلّق على العبارة الأخيرة. لكنها أحسّت أن «أنا» خائف من قرارها بالابتعاد بافتراض أنه فرصة يمكن أن تتكرر لو رحل.

تصنّع ابتسامة كبيرة وهو ينظر إليها ثم قال كمن يأمل للحديث أن ينتهي بتسوية مرضية «نعم.. الفرص تتكرر.. ربما هي كذلك بالفعل»، ثم أضاف «لنغيّر الموضوع قليلاً، ما رأيك في رحلة إلى الصحراء مع بعض الأصدقاء؟ إن الوقت مناسب مع اعتدال الجو، سيساهم ذلك في تعميق معرفة أحدنا بالآخر.. ما رأيك؟»

نظرت إليه ياسمين واكتفت بإيماءة من رأسها.

في نهاية الأمسية، حاول «أنا» وللمرة الأولى طبع قبلة على شفتيها، لكنها أشاحت بوجهها واكتفت بأن قبّلته هي على خدّه.

عندما دخلت إلى بهو بنايتها وقفت أمام أفتاب. بقيت تنظر إليه قبل أن تمضي تجاه المصعد. لم يقل شيئاً سوى أن ابتسم، لكنها لم تلبث أن عادت تقف أمامه وفاجأته بسؤال لم يتوقّعه «هل أنت كاهن بوذي؟».

نهض من مقعده مبتسماً وردّ على سؤالها بسؤال «لماذا تسألين يا سيدتي؟».

«لأن في أفكارك شيئاً من البوذية».

«حسن، لنقل إني لست كذلك»، وقبل أن تسأله شيئاً آخر أضاف «لا شأن للدين بما يفكر الإنسان، إذ كلّنا يفكر بالكيفية ذاتها وفي الأمور ذاتها. إن التاريخ يصنع الدين أكثر ممّن كتب السماء، المهمّ أن يكون الإنسان طاهراً في نفسه، وما يطهرنا ليس الدين وحده بل الحب. كل دين يدعو إلى الحب، وبالحب

يكون الإيمان الحقيقي».

هزّت رأسها وبقيت واقفة صامتة. أرادت أن تخبره شيئاً، لكنها ترددت، وقد أحسّ هو بذلك ولم يشجعها على قول شيء حتى استجمعت بضع كلمات «تشاجرت مع «أنا» بالأمس». لم يعلّق ومضت تقول محوّرة بعض ما حدث «.. لم يكن شجاراً، فقد كنا نتناول العشاء معاً عندما أخبرته بأن اندفاعاته تخيفني.. وللحق أقول إن رغبته القوية تجعلني حائرة، بل مترددة» رفعت رأسها تنظر في عيني أفتاب مترقّبة ما يقول، لكنه بقي صامتاً فمضت في حديثها «تذكّرت كلماتك السابقة. كلماتك التي قلت فيها إن ما تحبّينه سيحبّك. فهل يمكن أن يحبّني شيء لا أحبه؟».

«لقد قلت شيئاً آخر.. إن الحب كالكره ينبع كلاهما من المعرفة بالآخر. لا يمكن أن يحبّك إنسان لا يعرفك. لكن عندما تدعينه يعرفك، فأنت تهبينه الفرصة، وهذا يعني أنك ستحبينه من بعد. أما إذا.. أما إذا لم تعطه فرصة معرفتك فلن يحدث شيء، وتبقيا مكانكما حتى يقع انفصال لا شك فيه».

«أحسّ أني في متاهة لا أعرف كيف أخرج منها».

«عندما تسمعينه سيخرجك صوت داخلك من متاهتك؟».

«.. لست أسمع أي صوت»، قالت وهي تضع يديها في جيبي بنطالها متأففة.

«هل رأيت عمود النور مؤخراً؟» سألها.

«لا، فقد شغلتني الأيام الماضية لقاءات كثيرة، وكما تراني، أعود كل مساء منهكة القوى».

«حسن، لم يعد هناك».

فغرت ياسمين فمها وهرولت خارج البناية. مضت إلى حيث عمود النور.. حتى قاعدته اختفت. وقفت مشدوهة تتأمل فجوة صغيرة بالأرض كانت قاعدة العمود تستقر فيها. في وقفتها تلك رأت نفسها على مرآة العمارة الخضراء أمامها، بدت شاحبة العينين وناحلة. أحسّت أن اسمها قد رحل مع العمود والضوء. أطبقت يديها على وجهها وتمتمت «لا أريد أن أفقده من جديد.. لا أريد أن أنساه». عندما أزاحت يديها بتردّد، رأت على المرآة أمامها صورة «أنا».

عادت إلى بهو عمارتها شبه منكسرة كما لو أنها فقدت عزيزاً عليها. عندما وقفت أمام أفتاب، قال وقد علته ابتسامته الهادئة ذاتها «إن الضوء في داخلك أقوى من أي ضوء آخر».

انصرفت ياسمين في الأيام التي تلت إلى إنجاز أعمال تراكمت عليها. لكنها باتت تدرك في أعماقها أن حماستها التي عرفت بها قد فترت، وبالمثل انصرافها إلى صفقات كانت حريصة على إتمام أكبر قدر منها. فلم يعد المال غاية تستحقّ أن تصرف حياتها كلها من أجلها.

ذات صباح تسلّمت رسالة من أحد كبار عملائها يدعوها إلى تناول غداء عمل. أحست أن الدعوة لن تكون غداء فقط، فاعتذرت. وبقدر ما تكرّرت محاولة هذا العميل وغيره، كانت هي تزداد صفاءً وقوة في داخلها. كانت تنظر إلى محاولات الإغواء المبطنة على أنها عبث أطفال حُرموا كلمة حنان واحدة.

سألت نفسها أثناء اجتماع بواحد من أهم عملائها عمّا يتميز به

عنها هي وعن أفتاب. فكرت وهي تنظر إليه يتحدث كطاووس ملكي أن الريش المنتفخ أمامها سيمضي بعد دقائق الى الحمام كي يفعل ما نفعله كلنا، وأنه سيذهب بعد حين ليأكل كما نأكل كلنا، وأنه سينام في الليل كما ننام كلنا. «بماذا هو متميّز إذاً»؟ سألت نفسها وهي تنصت لحديثه المتملق وقد اصطفت أمامه ثلاثة هواتف جوالة صنع أحدها من الذهب الخالص. لم تعد تأبه لما يقوله العميل الثري، ولا بما يريد أن يشتريه أو يفاوض عليه. لم تعد تأبه بكل مظاهر الثروة التي حولها. هي لم تكن تهتم بالمظاهر، لكنها الآن لم تعد ترى حتى الشخص المختفي ورائها.

ما عاد يهمها إلى أي طبقة ينتمي الإنسان الذي تراه، او أي دين هو عليه، أو لونه وعرقه وما يملك وما لا يملك. كانت نظرتها الى الأمور تتغيّر، وبالمثل نظرتها الى الناس على اختلافهم.

عندما استرجعت ذكريات عملاء مروا من مكتبها، وجدت نفسها تبتسم في تهكم لما كانت تبديه من إنصات زائف لأحاديث لا تهمها في شيء. تخيلت نفسها طفلة تستمع لتملقات أناس لا يرون الذي أمامهم أكثر من عملة ورقية أو جسد يغسل عنهم كآبتهم. لقد كانت تركب في وقت ما الموجة الزائفة تلك، لكن الصور تتبدل، فما عاد أحد أقرب إليها أو أبعد إلا بقدر ما يضيف لها من قيمة في حياتها، قيمة إنسانية، وإنسانية فقط. وقد فسر لها ذلك سرعة اقترابها من أفتاب، الحارس الهندي البسيط، وبالمثل الاقتراب، ولو بتحفظ، من العاشق الجديد «أنا».

* * *

في الرحلة الصحراوية التي انطلقا إليها صبيحة أحد الأيام، وجدت نفسها تنظر اليه باهتمام وهو يسوق السيارة في طريق يمتد بمحاذاة سلسلة جبلية باتجاه شمال دبي. كانت الجبال البعيدة تقترب، ومعالم المدينة تختفي في الوراء. وعند منعطف رملي، انطلقت السيارة بعزم رباعي وهي تجتاز بعض الكثبان الرملية الصغيرة.

لم تستغرق الرحلة على الطريق الوعرة اكثر من ربع ساعة، لكنها بدت مغامرة حقيقية لياسمين التي لم تعرف الصحراء من قبل.

من بعيد رأت ما يشبه الخيم الصغيرة لمجموعة أصدقاء «أنا» الذين سبقوهما الى المكان. ومع أنه أخبرها بمن سيكون هناك، إلا أنها تمنّت أن يكون العدد أقل مما أخبرها به.. قبل أن تتوقف السيارة فكرت كيف سيقدّمها لأصدقائه، ومن تكون له عندما يسألونه، صديقة أم أكثر؟ ولأي درجة هي أكثر؟

سارت مراسم التعارف في ثوانٍ سريعة، فقد كان كلٌ لاهياً بما يشغله. واحد يشعل ناراً، وأخرى تجهز طعاماً، وثالث يحاول أن يشد أوتاد خيمة صغيرة. كانت ياسمين، بعد تردد، قد اتفقت مع «أنا» على أن تشاركه الرحلة شرط أن لا تطول أكثر من المساء. لكنها فور أن توقفت السيارة، ومع بعض نسمات البرد الخفيفة والهواء النقي تمنت لو قضت المساء كله هنا، تتأمل السماء والنجوم الصافية التي تحجبها أضواء المدينة.

بعد أن أصبحت جزءاً من المخيّم انطلقت تسير في الأطراف غير بعيد عن أعين «أنا». لم يقطع خلوتها تلك، لكنه لم يلبث

أن انضم إليها بالقرب من كثيب رملي كبير. عندما اقترب سألها عن رأيها بالمخيم والأصدقاء.

«هل تعرفهم من زمن طويل»؟ سألته.

«بعضهم.. والبعض الآخر لم أره سوى الآن».

شبك أصابعه بأصابعها وأخذ يتسلق الكثيب. كانت الطريقة التي شبك بها أصابعه توحي لمن يراهما أنهما قطعاً أكثر من مجرد صديقين. لم تكن لتمانع أي تفسير يخطر للآخرين، ولم تهتم، فقد كانت لاهية بتفسيرها هي لما تريده من هذا الذي تسير معه في قلب الصحراء. أحست بدفء يده وهو يشبكها بقوة أكبر في يدها، ثم يسحبها الى قمة الكثيب الناعم.

قطعت أفكارها صورة لم ترها من قبل للكثبان وهي تتوالى في امتداد لا متناهٍ. وجدت نفسها تنحدر من هذا الكثيب، وهي ما تزال ممسكة بـ«أنا» قبل أن تفلت يدها وتنطلق باتجاه كثيب آخر. كان هو يتبعها بهدوء وابتسامة تعلو شفتيه، ثم وقف يتأمل وقفتها اللاهثة وهي تنظر الى الأفق كمن تبحث عن شيء بعيد. شيء مثل العمارة الخضراء التي تركتها وراءها. بقيت ياسمين في وقفتها تلك تنظر إلى الاتجاه ذاته كما لو أن العمارة الخضراء أمامها بالفعل. لم تسمع «أنا» يسألها إن اعجبها المكان أم لا.. ولم تسمعه يسألها إن كانت جائعة أم لا.. ولم تسمعه يسألها إن أرادت أن تشارك في لعبة الكرة الطائرة أم لا. لقد كانت ياسمين في وقفتها تلك تشبه كاهناً يتعبد.

بعد لحظة نظرت إلى «أنا» وابتسمت. اقترب منها فشبكت أصابعها في أصابعه بمبادرة نادرة. «هل أنت سعيدة»؟ سألها، ولم

تجبه. كانت في داخلها تسأل نفسها الشيء ذاته. اكتفت بابتسامة وعادت تتأمل في الأفق من جديد قبل أن يقفلا عائدين إلى المخيم.

بعد ساعة من وصولهما بدا أن الجو أكثر حيوية وزالت رسميات اللقاء الأول، فراحت ياسمين تنطلق في عفوية تحادث هذا وذاك. بذل «أنا» كل جهد ممكن لإدخالها في عالمه دون ضغط منه. وقد كان واضحاً من طريقة تقديمه لها أمام أصدقائه أنها تعني له الكثير.

بعد الغداء انقسم فريق المخيّم إلى اثنين متنافسين في لعبة الكرة الطائرة. فضّلت ياسمين أن تراقب اللعب على أن تشارك فيه. جلست على صخرة صغيرة ثم لحقت بها زوجة أحدهم وجلستا تتحاوران. ثم انضمت إليهما واحدة أخرى. بعد ربع ساعة انسحبت لاعبة وانضمت الى المجموعة التي كبرت وعلت أصوات النساء فيها أصوات اللاعبين بالقرب منهن. كان حديثاً تقليدياً صرفاً عن الصحراء ودبي والرجال. شاركت ياسمين في الحديث من باب المشاركة ليس إلا، فيما كان «أنا» ينظر إليها مبتسماً من لحظة لأخرى وهو يركض في ساحة الملعب الرملي الصغير. بهدوء انسلت ياسمين نحو الكثبان الرملية من جديد. كانت أصوات اللاعبين وصرخاتهم المرحة تأتي من ورائها. أخذت تمشي على الرمل الناعم وتراقب انزلاقه على حواف بعض الكثبان. على بعد أمتار منها وجدت شجيرات صغيرة متناثرة «تشبه هذه.. لا، بل هذه.. بل هذه» وأخذت تتنقل من واحدة إلى أخرى وهي تسترجع صورة النبتة التى رأتها في منامها.

كادت أصوات رفاقها تختفي بعد أن بعدت بها المسافة في عمق الرمال، فخافت أن تفقد الطريق وعادت إلى حيث

انطلقت. كان «أنا» في استقبالها بعد أن لاحظ غيابها. عندما اقترب منها سألته «متى سنعود»؟

رغم أن الشمس لم تكن قد غابت بالفعل، ولم تستهلك هي كل طاقتها في اللعب أو المشي، أحسّت برغبة في العودة الى المدينة. لقد أحبّت هذا الامتداد اللانهائي في الصحراء، والكثبان الرملية، والصمت الكبير. لكن تلك الصورة الجميلة ذكرتها أيضاً بوحدتها. لقد رأت في الكثبان الرملية التي يجاور بعضها بعضاً صورة أخرى عن بشر منفصلين بعضهم عن بعض، وطغى عليها إحساس مفاجئ بالغربة. وهي في سيارة «أنا» في طريق عودتهما إلى دبي أمضت أكثر من نصف الطريق صامتة. كانت تفكر كيف أحسّت بشيء من الوحدة رغم وجود «أنا» وهذا الكم من الأصدقاء؟ وتأكد لها صدق كلمات أفتاب عندما قال إن الوحدة شيء ينبع من داخلنا نحن.

عندما توقفت السيارة أمام عمارتها، طبعت قبلة على جبين «أنا» وقالت «لقد استمتعت فعلاً». أمسك بيدها وقبلها وهو ينظر إلى عينيها. أحس بها تبادله النظرات، بل تنظر إلى عمق عينيه، فعاد يقبل يدها في حنان قبل أن تترجل، فأخذ يتأملها حتى دخلت إلى العمارة. كم تمنى لو استطاع أن يضمّها إلى صدره ويمسح براحتيه على ظهرها وكل قطعة من جسدها. لعلها قد أحسّت به حينها، وفي أحيان أخرى قبلها أيضاً. فقد كان اندفاعه نحوها يأخذ منحى اشتهاء قوي لعاشق متردّدة هي في قبوله.

قبل أن يغادر فكر للحظة أن يدخل الى البهو ليرى أفتاب. لكنه بعد تردّد قرّر أن لا يفعل، فقد أحس أن ياسمين، رغم

لحظات صمتها وشرودها، قد أصبحت أكثر قرباً منه، وأن قليلاً من الوقت سيضمن أن يكونا معاً دائماً، ولا حاجة لرؤية افتاب.

لم يكن أفتاب في البهو على أية حال، بل في حجرته الخلفية. حتى ياسمين لم تشأ أن تزعج راحته، فصعدت إلى شقتها.

بعد الثامنة بقليل، اتصل بها «أنا» يطمئنّ عليها. كان يريد أن يحادثها طويلاً، لكنها كانت تحس بإعياء حال دون ذلك. وقبل أن تذهب في سبات عميق كانت تسأل نفسها: هل أحدث «أنا» فرقاً في حياتها؟

****

مضت خمسة أسابيع منذ تناولت ياسمين عشاءها الأول معه وأسبوع واحد منذ التقته آخر مرة. أسبوع كامل لم تره. «وماذا في الأمر؟». قالت وهي تنظر إلى ساعة صالونها ذات العقرب الواحد. حاولت خلال الأيام السبعة التي مضت أن لا تفكر في «أنا»، ليس نفوراً ولا تعالياً، بل لتفكر جيّداً وتحسم أمر خطوتها القادمة بلا ضغط أو اتصال أو لقاء عابر. فقد أحسّت أنها أصبحت بلا بوصلة، وعليها أن تحدد المسار الذي يجب أن تسلكه.

لم تعد تسأل نفسها ماذا يريد، أو متى وكيف، بل أخذت تبحث عن السبب الذي يجعل رجلاً وسيماً تتمناه النساء يختارها هي رغم صقيع الألسكا الذي استعانت به في معظم لقاءاتهما. لم يكن أيٌّ من أجوبتها منطقياً مع رجل له شخصية «أنا» العنيد الرافض للهزيمة. وأمام فكرة الهزيمة هذه توقفت قائلة لنفسها إن ما يشبه الصدّ من طرفها هو ما يجعله يبحث عن انتصار في القبول به أكثر من عثوره على امرأة انتظرها طويلاً. إلاّ أن

تحليلات كثيرة كهذه كانت تذهب أمام نسمات الشتاء الباردة، فتكف عن طرح الأسئلة وتسترجع أيام وحدتها، وتحريض أفتاب، والفرصة التي أمامها.

في البدء احترم «أنا» رغبتها في الاختلاء بنفسها لأسبوع أو أكثر «حتى أتصل بك» كما قالت له. وامتنع عن الاتصال بها باستثناء مرة للاطمئنان إليها. ردّت عليه بفتور مصطنع، وقد سألت نفسها إن كان مصطنعاً بالفعل؟ بعد أن انقضى الأسبوع أرسل في اليوم الأول وردة بيضاء إلى مكتبها، ثم أصبحت وردتين، في اليوم الثالث أرسل باقة ترتفع أكثر من مترين عن الأرض، حملت بطاقة صغيرة: «أشتاق إليك».

بقدر ما داعب الورد أنوثتها، أحست بـ «أنا» يخترق حصار وحدتها. كان الاختراق قوياً، ومهيباً. لكن هل أزعجها؟ لم تفكر في الأمر وانشغلت بصفقة قادمة.

في مساء يوم سبت، أعيتها أفكار تناثرت في أرجاء شقتها كزجاج مكسور، فقصدت أفتاب الذي كان يقرأ في كتابه. حيّته وصمتت. نظر إليها وسألها «لمَ ترتعشين؟»

لم تقف ياسمين على نفسها أنها ترتعش بالفعل. وإن كان ثمة سبب لذلك فهو تفكير قوي رافق صباحها، حاولت أن تهرب منه فما استطاعت. هي تريده ولا تريده، تحتاجه ولا تحتاجه، تشتهيه ولا تشتهيه. بلى.. بلى تشتهيه. هي منذ الصباح تشتهي رجلاً يجذبها بجسده وشخصيّته، وبعنف يطرحها أرضاً، ويطارحها الغرام. كانت تشتاق إلى ليلة شقية، أو نصف ليلة، ولا بأس بساعة واحدة. من أجل ذلك هي ترتعش.

أمسكت يدها باليد الأخرى توقف اهتزازة بالكاد ترى «كيف رآها أفتاب؟» فكّرت وهي تنظر إليه، وكسد تحطّمت أبوابه أمطرته بأسئلتها «ما هو مصدر الصوت في داخلنا، كيف يأتي، من أين ينبع؟ ماذا يقول؟ ماذا.. وماذا وماذا؟».

تركها أفتاب تفرغ ما بداخلها بنبرة تكبر وتكبر حتى كادت تتحول إلى صراخ. عندما صمتت، أجابها بهدوء «ستعرفينه عندما يأتيك».

«هل ينطق الخير بداخلنا أم الشر الذي يحاول أن يغوينا. هل هي الملائكة التي ستتحدث إلينا أم الشيطان؟» سألته بصوت حاد ومرتفع.

أزاح نظارته في هدوء وبثقة قال «للملائكة ما يشغلها، أمّا الشيطان فلا وجود له».

«هل تنكر الشيطان ذاته؟» سألته كمن تبحث عن إثارة تفجّر ما فيها من غضب.

«الشيطان هو إرادة الشر في داخلنا، لكنها إرادة هشة ضعيفة الصوت، أما الصوت الآخر فسيكون من القوة بحيث تسمعه كل أجزاء جسدك».

«ومتى سيأتي؟».

«عندما تحتاجين إليه».

«أحتاج إليه الآن، أحتاج إليه منذ الأمس، أحتاج إليه كل لحظة. أتعلم شيئاً؟» قالت بنبرة قويّة وهي تتفرس في وجهه «بتّ أشكّ أن هناك صوتاً ينبع من داخلنا لا نسمعه. لو أخبرت أحداً أني أنتظر أمراً كهذا لاتهمني بالجنون».

ردّ على هيجانها العارض بابتسامة بدت أكثر ثقة، وقال «لا تهتمّي بالآخرين، فحتى هم ينتظرون أصواتهم. لا تجعلي غضبك ينتصر».

«وكيف أهزمه، بالدعاء أم الصلاة؟».

«إرادة الانسان أقوى من الدعاء».

لم تعلق على ما قال، وعوضاً عن ذلك مضت تقول «أشعر أني فقدت إرادتي وعقلي، فتارة أحسّ بالسعادة وتارة تجدني أبكي، كأن بي مسّاً أو سحراً. أحاول أن أتصالح مع ذاتي، أن أكون أكثر نجاحاً. لكنني عوضاً عن ذلك بتّ أشكّ في قدرتي على تحقيق شيء، حتى الرجل الذي يريدني بتّ أشك في قدرتي على الاستمرار معه. لقد أعياني التفكير والتردد، لقد تعبت تعبت» وأرخت رأسها في انكسار.

نظر إليها وأجاب في عطف أبوي «لا تفقدي الثقة بذاتك، فكلنا لدينا شيء ثمين نقايض به» وأشار بسبابته اليمنى إلى موضع قلبه، وعاد يقرأ في كتابه متمتماً كلمات بالكاد سمعتها «لقد اقترب الصوت».

أغلقت باب شقتها شاردة تفكّر كيف فقدت السيطرة على نفسها. سارت إلى حيث نافذة حجرتها، وتأمّلت العمارة، ثم عمود النور الذي ما عاد مكانه. لم تشعر بشيء، ولم تدر ما تفعل. أحسّت بنفسها تائهة حائرة، ووحيدة للمرة الألف.

أشعلت سيجارة دون أن تسحب منها نفساً واحداً، أخيراً التقطت هاتفها الجوال واتصلت بـ «أنا».

وهي تطلبه، كان عقلها يفكّر: ماذا ستقول له؟

أوقفت الاتصال عند الرقم الأخير، وأطبقت على الهاتف بيدها، وجلست تستمع إلى الصمت من حولها. لم يكن هدوءاً بل موتاً. الوحدة موت وهي ما أنساها اسمها وهويتها لا العمارة الخضراء. «آآآآآآآآه». أطلقت تنهيدة أحسّت بها تأتي من مكان بعيد في أعماقها، ومن زمن يعود أربع سنوات إلى الوراء. وكأن التنهيدة جلبت معها شيئاً من ذاك العمق، وجدت نفسها تطالع في صور كثيرة أمامها. لكن.. لم تكن صور ماضٍ رحل كما اعتادت ذاكرتها أن تفعل، بل هي صور حاضر تعيشه. رفعت رأسها باتجاه الحائط، إلى ساعة الزمن البطيء، فرأت زمناً آخر يتحد كل ما فيه في اللحظة تلك، في الثانية تلك، في الآن. صورة وراء صورة لحاضر واحد. لم يتحرك عقرب الساعة الصغير، بقي جامداً مكانه، أحسّت أن الزمن قد تجمّد أكثر مما ينبغي، وهي تريد القفز إلى المستقبل. تريد أن تراه، تعرف ما فيه، لكن الساعة لا تتحرّك، ولأول مرة تندم على ما فعلته بها.

أقفلت عينيها على الصور تنسحب واحدة تلو الأخرى وتمتمت «يا الله». بعد لحظات بدت طويلة، نظرت إلى الهاتف في يدها واتصلت بـ «أنا».

لقد قررت أن لا تراه مجدداً، هكذا بكل بساطة حسمت الأمر. تنهّدت مستسلمة لإحساس بالراحة على ما وصلت إليه. فقد وجدت أن اتخاذ قرار ولو كان خاطئاً أفضل من عدم اتخاذه، وإنْ كان في المخاطرة منجاة كما قال أفتاب ذات مرة، فلتكن مخاطرتها في قرارها أن لا ترى «أنا» بعد اليوم. كان هاتفه يرنّ على الطرف الآخر. مع الرنّة الثالثة أتاها صوته مليئاً بالأمل.

وقبل أن تخبره بما عزمت عليه، باغتها بسؤال «ما رأيك في تناول عشاء مختلف في مكان مختلف؟».

وكمن قد أعد نفسه لهذا الاتصال أضاف «سأعدّ لك طعاماً بنفسي وفي منزلي، وحدنا على ضوء الشموع».

لم تتباطأ اندفاعاته كما توقّعت بل رأتها تزداد عمّا كانت عليه. وبدلاً من أن يكون اللقاء في مكان عام ها هو يدعوها إلى منزله، وحدهما، على ضوء الشموع.

«مجنون» قالت في سرّها. لكنه فاجأها ثانية «سنحتفل بعيد ميلادك، أعرف أنه سيكون بعد أيام، ليكن اليوم لنا وحدنا وفيما بعد للأصدقاء في مكان اخترته لهذه المناسبة، هل تعلمين أنه سيوافق يوم خميس؟».

«كيف عرفت ذلك؟» سألته في ذهول.

«لتحبّي إنساناً يجب أن تعرفيه، أليس هذا ما يقوله صديقك أفتاب؟ ها أنا أحاول معرفتك يا سيّدتي الجميلة. على كل حال، سنتحدّث عن ترتيبات الحفلة عندما تأتين».

وقبل أن يعطيها أيّ فرصة ردّ قال «سأبعث لك بعنواني على هاتفك. أنتظرك في الثامنة».

«من تراه يحسبني؟» قالت وهي تغلق الهاتف «إنه مجنون حقيقي. مجنون ولا شكّ».

في الثامنة تماماً، كانت تطرق باب شقته.



لم تعرف من قبل، ولم يخبرها هو، أنه يحب الرسم

ويجيده. فقد طالعتها سبع أو ثماني صور لها، علّق اثنتين منهما في صدر صالونه الكبير، وتراصت البقية بعضها وراء بعض تحت حائط خاو. لقد فاجأها ثانية ذاك المساء.

أخذت تتأمّل مبهورة في رسمه والأشكال التي بدت هي فيها. كانت تطابق أزياءها أو بعض حركاتها في مناسبات مختلفة جمعتهما. شعرت وهي تقف أمام تلك اللوحات بأنها تقفز خطوة كبيرة تجاه «أنا» أو أنه هو من يقفز إليها واثباً من إحداها.

«شغلت أيامي الماضية برسمك» قال فيما هي تنظر إلى لوحة زيتية كبيرة لفتت انتباهها «كنت أستحضرك معي كل يوم». نظرت إليه بعينين هادئتين فابتسم وقال «لا.. لست أندفع تجاهك، لكني أحبّ الرسم، ولم أجد ما هو أكثر منك جمالاً كي أرسمه».

كانت عباراته تدغدغ مشاعرها وترسم ابتسامة عفوية على شفتيها. شيء فيها يتغيّر، وشيء آخر يقرصها بإحساس ذنب تجاه الرجل الذي قرّرت في لحظة أن لا تراه بعد اليوم، لكن الآن، وبعدما رأت نفسها عميقاً في داخله «فأيّ عشق أكثر من هذا؟» تساءلت وأحسّت بعينيها تفيضان.

عادت تنظر إلى اللوحة الزيتية الكبيرة التي رسمها فيها كأميرة تلبس ثوباً طويلاً يشبه البحر، تزينه لآلئ وفصوص برّاقة، تجلس فوق عرش على شكل قلب بلون خمري، تمسك في يد بصولجان من ذهب، فيما تراخت الأخرى على ثيابها مع خاتم يشعّ منه ضوء شمس. اقتربت من اللوحة تتأمّل تفاصيل الوجه: أنف حاد مرتفع، عينان كبيرتان شديدتا السواد والبياض، شعر كستنائي معقود على شكل ضفيرة تتدلّى من كتفها حتى صدرها. بقيت تتأمل صامتة.

كانت تنظر إلى الصورة في اللوحة وتتفحّص بدقّة بعض تفاصيلها، العين والشعر والأنف. فجأة دفعت بجسمها إلى الوراء واختفى بريق عينيها وغابت الابتسامة. عندما أحسّ «أنا» بذلك قال «ليست زاهية كثيراً، سأعمل على تخفيف بعض قتامتها».

كان صوت موسيقى هادئ ينساب في الشقة بصالونها الكبير ولونها الأبيض الطاغي على كل أثاثها. بعد أن أشعل «أنا» خمس شمعات كبيرات تنتصف طاولة صغيرة أطفأ الأضواء. كان البياض المحيط بالمكان، والستائر الفضفاضة التي تنسدل على زجاج يمتدّ من السقف إلى الأرض، يتموّج في شاعرية تلائم ليلة شقية من الطراز الأول. عندما جلسا متقابلين، على أريكة عريضة بحجم سرير، نظرت إليه وأحسّت بنفسها تغوص إلى عمق عينه. كانت تلك أكثر مرة تقترب منه إلى حدّ التماس. عينان بلون العسل، وحدقة تضيق وتتسع، وموسيقى ناعمة تنساب فوق انحناءات الستائر، وتماس يقترب أكثر، فأكثر.. فأكثر.. وتلاقت الشفاه.

استسلمت له في أجواء صنعها محترف نساء. طالت القبلة، وتلاصق الجسدان، وتمدّدا على الأريكة التي بعرض سرير. بعد دقائق تباعدا وهو يحسّ ببرودة مفاجئة في قبلتها. تراءى له أن يتروّى قليلاً، فأخذ يدها برفق وأحاط بالأخرى خصرها ومضى بها إلى المطبخ.

اشتمت رائحة طعام أعدّه وهو يضع مريولاً ويعتمر قبعة طاه صنعها بعبث من ورق مقوّى. كان منظره مضحكاً ومسلياً. قدّم لها كأساً وأخرى له، ثم أذاقها ما أعدّ، أغمضت عينيها وهي

تحرّك لسانها «رائع» قالت وشرعت تفكّر إنْ كان قد أحسّ كم هو جسدها يرتعش.

وضع الأطباق على طاولة صغيرة في ركن من صالون شقته، ووقفت هي قبالة تلك اللوحة الزيتية الكبيرة تتفرّس فيها. دخل إلى مطبخه وعاد بعد دقائق فوجدها تقف أمام فجوة بين الستائر تنظر إلى البعيد. اقترب منها واحتضنها من ظهرها «لينتظر الطعام قليلاً». وقبل أن تفهم ما يقصده كان هو يطبع قبلة كبيرة على رقبتها فشفتيها ثم حملها بذراعين قويّتين ومضى بها إلى سريره.

كان الشمع يضيء أحد أركان حجرة النوم. «لقد أعدّ لهذه الليلة جيّداً» فكّرت ثم انقطع عقلها عن كل شيء وهو يعصر شفتيها وينزع ثيابها قطعة قطعة. بعد أن تعرّى شيء منها انزلقت تحت غطاء السرير، وأخذت تتأمل جسده المفتول وهو ينزع ثيابه بسرعة ويزيح الغطاء وينحني عليها بقبلات محترف. تأوّهت، تلوّت، ثم صمتت، وقبل أن يصعد من الرقبة إلى الشفتين، وفي حركة مفاجئة وعنيفة معاً، دفعته بعيداً عنها. نظر إليها مستغرباً وهو يجلس على ركبتيه شبه عار، كانت عيناها تدمعان فيما تسارعت أنفاسها صعوداً وهبوطاً وهي تسحب الغطاء بكلتا يديها على جسدها.

«هل هناك خطب ما؟» سألها.

بقيت صامتة ترتجف.

كرر السؤال مرة أخرى، وبقيت هي صامتة تنظر إليه وتشدد قبضتها على الغطاء.

«حسن، أعتذر إن بالغت في اندفاعي» قال ونهض عن

السرير. كان في صوته شيء من غضب. لبس معطفاً قطنياً، ومضى إلى المطبخ. غاب قليلاً ثم عاد فوجدها تجمع ثيابها تحت الغطاء وتلبسها. لم يسألها شيئاً، وغادر الغرفة.

خرجت إليه بعد دقائق وهي تقبض منديلاً في يد وتحمل بالأخرى حقيبتها الجلدية الصغيرة.

«يجب أن انصرف» قالت ومضت تجاه الباب.

«ما الذي حدث؟ تريدين أن تذهبي؟ لا بأس، لكن أخبريني أولاً ما الذي حدث لتدفعيني عنك بهذه القسوة وتغادري، ولم نبدأ سهرتنا بعد؟».

«لا شيء.. فقط أريد أن أذهب» ردّت باقتضاب وهي مولية ظهرها إليه باتجاه الباب.

أمسك يدها قبل أن تفتحه «حسن، فقط تناولي العشاء معي. سيعجبك. لقد ذقته، ألم يعجبك؟ هه؟» وأحاطت يده جيدها برفق ومضى بها تجاه الطاولة. سارت معه ساهمة للحظات قبل أن تبتعد عنه وتعود إلى الباب وتغادر على عجل بلا كلمة واحدة.

قادت سيارتها تجاه شارع جميرا. بدت مشوّشة لا تفكّر في شيء محدّد. بعد قليل انفرجت شفتاها عن ابتسامة رقيقة وأدارت جهاز التسجيل على أغنية تحبّها. كان شيء في داخلها يحدث، وعلى صوت نغم لا صخب فيه طالعتها صور كثيرة لـ«أنا» منذ لقائها الأول به فالأخير دون أن تقف كثيراً عند الطريقة التي غادرته بها.

قطعت شارع جميرا من ساحة العلم حتى الطرف الآخر، مرتين، وهي تستمع إلى أغنيتها وتعيدها كلما انتهت. كانت تدندن مع اللحن اسمها هي في مقاطع غير متآلفة، لكنها أحبّتها

وكررتها. إحساس عارم بالحبّ كان يغمرها. كل شيء من حولها بدا جميلاً في لحظاتها تلك. تمنّت لو أنها عاشت حياتها بالمزاج نفسه الذي هي عليه الآن. لقد كان التناقض عجيباً وشاسعاً بين بداية أمسيتها التائهة ونهايتها الغريبة، «نعم.. غريبة جداً» فكّرت وهي مقتنعة بأن العالم كله، في تلك اللحظة، سعيد من أجلها، وأن العالم كله، في تلك اللحظة، معها، وأنها ما عادت وحيدة كما كانت بالأمس، بل كما كانت منذ دقائق. أخذت تنتقل من شارع لآخر، ومن منطقة لأخرى تغنّي، تصرخ، ترقص، تفعل كل ما تمنّت أن تفعله في حياتها كطفلة صغيرة، أو سيّدة كبيرة، لا يهمّ. شيء واحد فقط كان يهمّها، شيء واحد فكّرت فيه، أن ياسمين التي دخلت شقة «أنا» هي غير تلك التي غادرتها. ياسمين التي لا تزال هناك، ولعلها اللحظة نائمة تحته، أو هو تحتها.. لا يهمّ، هي الآن واحدة أخرى غيرها. ياسمين تلك التي تركتها هناك ربما تغتسل بعد أن فرغا، أو تغسل له، لا يهمّ هي الآن امرأة أخرى غيرها، وغير تلك التي ربما هي الآن تتناول الطعام معه أو انتهت منه، وغير تلك التي رسمها، وقال إنه قضى الأيام يرسمها، ويتخيّلها أميرة فوق عرش على شكل قلب خمري اللون، بأنف حاد مرتفع، وعينين واسعتين شديدتي البياض والسواد، وشعر كستنائي في ضفيرة تتدلّى فوق صدرها... «لم تكن تلك أنا، بل كانت امرأة أخرى، امرأة ظلّ يحلم دوماً أن تكون له فرسمها». أمام تلك اللوحة التي قال إنها لها، ولم تكن لها، تذكّرت اتصاله ذاك اليوم الذي وصفها فيه قبل أن يراها، وراهن أن لها أنفاً حاداً وعينين واسعتين وشعراً كستنائياً تشدّه كضفيرة فوق الصدر، لقد كان يصف امرأة

يتمنّاها، أو لعلها كانت ذات يوم ورحلت. «لم أكن أنا المرأة التي تمنّاها، ولم أكن أنا تلك التي في اللوحة» لكن أيضاً وأيضاً، لا يهمّ، فالأمر أكبر من كل ذلك.

أوقفت سيارتها أمام باب عمارتها، ومشت إلى حيث كان عمود النور يقف تماماً، ووسط ما يشبه العتمة نظرت إلى نفسها في مرآة العمارة الخضراء ونطقت اسمها بصوت عال. ابتسمت مزهوة به سعيدة ومضت إلى بنايتها، وقبل أن تخطو الدرجات الأربع باتجاه أفتاب الذي كان يجلس مكانه أخذت تنظر إليه بالابتسامة نفسها التي لازمتها منذ غادرت شقة «أنا». صعدت الدرجات الأربع ببطء وهي تقول «لقد سمعته أيها الحارس الأمين» وتقدمت حتى وقفت قبالته «لقد سمعته».

****

في الأيام التي تلت انشغلت ياسمين، بعيداً عن عملها، بثلاثة أمور: البحث عن شقة جديدة في منطقة المرسى التي حلمت بسكناها من قبل، وتجاهل اتصالات «أنا»، والاستعداد لعيد ميلادها الذي تمنّت لو احتفلت به في شقتها الجديدة.

لم يكن البحث عن شقة في «مرسى دبي» أمراً سهلاً حتى على فتاة تعمل في شركة عقارية كبرى. فالأسعار، رغم تدنّيها بفعل الأزمة العالمية، بقيت تلامس سقفاً مرتفعاً، على ميزانيتها هي على الأقل. والأسوأ أن شقتها التي تشبه الجحر كانت كبيرة الحجم مقارنة بكثير من الشقق التي اكتملت للتو، وهي التي أقسمت أن لا تعيش مرة أخرى كفأرة في جحر صغير. ومن أجل قسمها هذا ضحّت بثلاثة أشهر متبقية من إيجارها في الشقة القديمة عندما

وجدت ضالتها في بناية جديدة توافق ما تبحث عنه. غرفة نوم متوسّطة الحجم، وصالون لا بأس به، كلاهما يطلّ على المرسى حيث يجثم عدد لا حصر له من اليخوت الفاخرة، والأهم أنه لن تكون هناك عمارة خضراء تحجب أشعة الشمس.

عادت ذاك اليوم إلى شقتها القديمة في المساء. كانت قد أخلتها منذ الأمس شركة نقل متخصّصة، رتّبت كل شيء خلال ساعات، وانتقلت به إلى الشقة الجديدة. كان وقع حذائها يسمع على الأرضية الصلبة الخالية وهي تتنقل بهدوء من المطبخ إلى حجرة النوم والصالون. وقفت أمام النافذة التي تطلّ على العمارة الخضراء. بقيت تتأملها وتتذكّر اللحظة التي رأتها للمرة الأولى. أدارت ظهرها للنافذة وأخذت تطالع الحجرة الخاوية، وسالت منها دمعة فراق.

تناثرت في الأرجاء بقايا أشياء لا قيمة لها، قصاصات ورق، رباطة شعر، مشبك غسيل. في طرف الغرفة، رأت قصاصة تعرفها. إنها التي كتب فيها أفتاب عبارته التي ما نسيتها يوماً «اسمعي الصوت في داخلك». كانت القصاصة شبه ممزّقة وتحمل أثر حذاء داسها. التقطتها بابتهاج وهي تمسح أطرافها. كانت قد وضعت القصاصة وسط أحد كتبها. ضاع الكتاب وسط زحمة الانتقال واعتقدت أن القصاصة معه قد ضاعت للأبد. لكن ولأن لا شيء أبدي، كما يقول أفتاب، ولأنّ الفرص التي تضيع تخلق وراءها فرصاً أخرى، فقد انقذت سقطت القصاصة من الكتاب أن تضيع.

وضعت ما وجدته في جيب صغير داخل حقيبتها، وبحثت

من جديد عن شيء ربما تكون قد فقدته في البقايا المتناثرة. أغلقت الباب خلفها وطبعت قبلة عليه. كان أكثر ما تمنّته حينها أن لا ترى أفتاب وهي تغادر عمارتها للمرة الأخيرة.

في البهو وقفت تنظر بضع ثوانٍ إلى المقعد الخاوي وراء الكاونتر. كان الصحن الذي تجثم فوقه الموزة موجوداً وخاوياً هو الآخر. فتحت حقيبتها والتقطت قلماً وورقة مزّقتها نصفين وسطّرت على أحدهما عبارة وداعية لأفتاب وختمتها بكتابة عنوانها الجديد. طوت الورقة ووضعتها على الطبق. وقفت تتأمل الورقة وتتذكّر الموزة الصفراء. لقد كانت هي نفسها الموزة أمام «أنا» في شقته تلك الليلة. هو أيضاً كان موزة اشتهتها، لكن إرادتها التي تشابهت مع إرادة أفتاب أمام موزته جعلتها تنتصر على ذاتها في تلك اللحظة فوق السرير. لعله أراد أن يجرّبها، ولعلها أرادت أن تجرّبه. كلاهما أراد أن يجرّب الآخر. كلاهما رأى الآخر فأراً. فكرت في ذلك في اليوم التالي من تلك الليلة، وتذكرت حلمها ذات مرة بأن هاتفاً جوالاً يراقصها قبل أن يتحوّل إلى فأر. كان ذلك هو «أنا».

منذ غادرته تجاهلت اتصالاته كلها باستثناء واحد. فقد رأت أن من حقّه معرفة لماذا انسحبت وبهذه الطريقة في لقائهما الوحيد في شقته. لم يكن يعلم أنها قررت أن لا تنسحب منه تلك الليلة فقط، بل أن تنسحب من حياته كلها. قالت «فرصتك التي تستحقها لم تأت بعد، وستأتيك من هي أفضل لك مني». لم تعرف إنْ كان «أنا» قد استوعب ما قالته، ولم تهتمّ، فقد اكتفت أن تكون تلك العبارة شاهدة على التواصل الأخير بينهما.

ألم تهبه فرصته؟ لقد كانت تعلم ذلك جيّداً، لكنها حدّثت نفسها لمرة واحدة وأخيرة أنها لن تجد فرصتها معه أو بالأحرى ليست تراها قريبة أو بعيدة. وعندما بحثت عن السبب الذي دفعها إلى زيارته في شقته، بعد أن كانت قد قرّرت من قبل أن تنهي العلاقة به، أدركت أن السبب لم يكن في إعطاء فرص متبادلة، بل لإرواء شهوة جسدية لا أكثر. من أجل ذلك حدث فوق السرير ما حدث.

في الأيام التي تلت شعرت أن أفتاب يطلّ عليها من مكانه الذي يجلس فيه الآن، لكن بلا حوارات جديدة. وقد تأكد لها أن الانقلاب الذي حدث في حياتها هو انعكاس لأفكاره التي قالها، أو أن أفكاره هي انعكاس حياتها. من أجل ذلك تصارع في داخلها إحساسا النصر والهزيمة. هزيمة الانكسار الذي كانته بالأمس القريب أمام ذاتها وأمام أفتاب، ونصر عودتها إلى هويتها الانسانية رغم كل ما أحبطها ورغم والدها، و«سليم» و«أنا» والعمارة الخضراء.

«الوحدة كالسعادة مصدرها نحن لا الآخر». عبارة أفتاب هذه كانت بلسمها، وهي ذاتها التي أدخلتها ذاك المساء في حالة توازن روحي فوق سرير «أنا» فسمعت الصوت في داخلها. كان قوياً ومهيباً وحاسماً. نعم... لقد سمعت الصوت الذي أخبرها عنه أفتاب. نبع من داخلها فجأة عندما لامستها شفتا «أنا» فوق سريره. جاءها الصوت كضوء ساطع انطلق من أعماقها ليخبرها بأن سليم ليس هو، ولن يكون.

تلك الليلة، وعندما خلدت إلى سريرها عائدة من شقته، قررت أن تترك شقتها الصغيرة. تلك الليلة أحسّت أنها انعتقت

نهائياً من كل ذكريات ماضيها، وأنها باتت تسبق العالم كله خطوة واحدة، كما أراد لها «سليم» أن تكون. كان إحساس الرضى يغمر داخلها كضياء قوي.

عندما شرعت في اليوم التالي تبحث عن شقة جديدة، بدأت صباحها بتحيّة خاصة لأفتاب، وكل من صادفته في طريقها من قاطني العمارة. حتى الحارسين الآخرين اللذين قلما تحدّثت معهما، سألتهما عن أخبارهما بلا تصنع. وعندما قال أحدهما بأن زوجته مريضة وجدت نفسها تدسّ في يده خمسمائة درهم.

بقي سؤال حائر في عقل ياسمين تردّدت أن تطرحه على صديقها الهندي حتى اللحظات الأخيرة التي سبقت انتقالها. شعرت أن ربما لا أهمية للسؤال، وأن أفتاب أعطاها أهم ما يحتاج إليه الإنسان: الأمل الذي لا يموت، ما يأتي بعد ذلك لا قيمة له.

مع هذا بقيت تسأل نفسها «ما هو مصدر الصوت الذي سمعته، من يكون، أهو نحن أم شيء آخر؟» حاولت أن تتجاهل السؤال، لكنه بقي يتراقص في رأسها كعصفور في قفص صغير. افترضت أن الصوت هو نحن، أو ضميرنا. افترضت أنه إنسانيتنا التي ارتفعت العمارة الخضراء ذات يوم فوقها، افترضت أيضاً أنه إرادتنا.

كان على أفتاب أن يكمل قصته معها، وقد حاولت أن تختصر الأمر في جواب لا يزيد حيرتها، فسألته في حوارهما الأخير «من صاحب الصوت؟».

بنبرة عميقة ومهيبة قال «إنه الله» وصمت كما لو تلك هي المرة الأخيرة التي سينطق فيها.

****

كانت ياسمين تعيد ترتيب أشيائها في شقتها الجديدة عندما اتصلت بها صديقة تحدد معها مكان الاحتفال بعيد ميلادها الذي سيأتي بعد ثلاثة أيام. قالت إنها تفضّل مكاناً هادئاً، واقترحت الصديقة مطعماً لبنانياً بفرقة موسيقية وراقصة روسية. اقترحت ياسمين شقتها الجديدة واقترحت الصديقة مطعماً بحرياً في أحد الفنادق المطلّة على البحر.

لم تغادر شقّتها في اليومين التاليين حتى فرغت من ترتيب حاجياتها، وآخرها تثبيت ساعتها الحائطية ذات العقرب الواحد. في المساء، انطلقت تكتشف منطقتها الجديدة مترجّلة بامتداد الممشى الذي يطلّ على القناة البحرية. كانت تحيي برأسها كل من قابلته كأنها تعرفه منذ زمن. تطاير شعرها مع نسمة هواء باردة. أخذت وهي تتأمل العمائر المحيطة بالقناة تعدّها، ثم شرعت تعدّ طوابقها. رأت من بعيد واحدة تشبه تلك التي كانت فيها، ثم أخرى تشبه التي نبتت بجوار نافذة حجرتها. «لا.. لا.. هي لا تشبهها».

عمائر دبي المكسوة بالزجاج تبدو كبصمة الإصبع، لا تشبه إحداها الأخرى، وإنْ كان من وصف تستحقه مجتمعة فهي «متحف هندسي مفتوح». فكرت ثم وقفت قبالة حاجز معدني يمتدّ على طول القناة وتمتمت «ما أجمل المكان.. ما أجمل المدينة»، وتذكّرت ثاني محادثة لها مع أفتاب عندما قال «إن جمال المدينة هو فيما تخلقه من أمل». أشعلت سيجارة وراحت تفكّر في كل أمل تمنّته وطموح عزمت على تحقيقه. كانت تقلّب نظرها بين البعيد حيناً، وسيجارتها حيناً آخر، وفي منتصفها تذكّرت أن تلك كانت سيجارتها الأولى منذ يومين، «يا لها من موزة لعينة» قالت في نفسها، وسحقت

السيجارة بكعبها وألقت بالعلبة كاملة في سلّة مهملات. على بعد عشر خطوات كان هناك رجل يحضن زوجته وهما يتأملان يختاً يعبر أمامهما، فيما طفل يلعب خلفهما مع كلب صغير. بقيت تتأمل الكلب يقفز مبتهجاً وهو يداعب الطفل ثم أقفلت عائدة إلى شقتها الجديدة.

على مدخل بنايتها استقبلها حارس شاب بابتسامة باهتة وأخبرها، بإنكليزية تشبه أي شيء إلاّ الإنكليزية، أن رجلاً سأل عنها قبل دقائق. شكرته ومضت إلى شقتها غير مبالية بمن سأل عنها ولم يسأل.

تمنّت وهي تعدّ عشاء خفيفاً لو تجاهلت صديقاتها حفلة ميلادها، وبدلاً من أن تطفئ ثلاث شمعات أو ثلاثين وسط جمع من الناس والضجيج، يمكن أن تكتفي بشمعة واحدة في جلسة هادئة في شقتها الجديدة.

في تلك اللحظة، أحست كأن صوتاً يأتي من داخلها. وضعت بهدوء سكيناً كانت تقطع به خبزاً فرنسياً وكأنها تنصت، ثم ما لبثت أن ضحكت بعمق حتى سالت دموع عينيها. بعد أن توقّفت مضت إلى حمّامها. أمام المرآة رأت امرأة أجمل منها، لها عينان سال منهما دمع سحب معه كحلاً رسمه كنهر على خدها. غسلت وجهها ثم قالت تحدّث مرآتها «كل يوم هو عيد ميلاد جديد». نظرت إلى ساعتها فكانت تقترب من الثامنة. شعرت بشوق إلى عمارتها القديمة وأفتاب. قبل أن تكمل إعداد عشائها كانت تضع جاكيتا بنياً فوق قميصها الزهري وتمضي إلى عمارتها الأولى.

وجدت سيارة تقف في موقفها القديم، ودون أن تغادر

مقعدها نظرت عبر المدخل، فوجدت أحد الحارسين هناك بدل أفتاب. قدرت أنه سيكون في حجرته الخلفية، فترجّلت ومضت إليه. كان يجلس على كرسيه الخشبي يحمل مذياعه قرب رأسه وعلى كتفيه بطانية صغيرة. لم ينتبه إلى من تقف بالقرب منه تتأمّله في صمت، وعلى نحو غريب دهمها إحساس بأن الرجل الذي يجلس أمامها وكأنه خيال، هو خيال بالفعل. إنه مثل العمارة الخضراء التي قال عنها ذات يوم إنها أفكارنا التي تتطوّر. هو أيضاً أفكار تتحرّك. هو واقع وخيال في الوقت ذاته. أرادت ياسمين حيث بقيت تتأمّله لدقائق أن تطبع هذه الصورة الأسطورية للرجل بلا مساس، وبلا أي اتصال آخر معه.

انسحبت بهدوء إلى سيارتها ومضت عائدة إلى شقّتها.

في صباح يوم عيد ميلادها، وفي مكتبها الصغير الأنيق كانت باقة ورد تنتظرها مع بطاقة صغيرة «هل تقبلين دعوتي على العشاء؟» لم تعرف من أرسلها، ولم تحمل البطاقة أي اسم.

قطع تفكيرها اتصال صديقة تسأل عن ساعة الاحتفال.

«سنجتمع في الثامنة مساء»، قالت وعادت إلى عملها.

في المساء تجمّعن في المطعم. كن أربع فتيات مع أربع هدايا لياسمين التي كانت آخر من حضر، فقد انشغلت بإعداد شيء ما في شقتها الجديدة التي تمنّت لو كان الاحتفال فيها.

قضين أمسية امتدت حتى الحادية عشرة مساء، وتحت إلحاح ياسمين، ختمنها سريعاً بقطعة كاتوه متوسطة الحجم تتوسطها ثلاث شمعات. بعد أغنية ميلاد صغيرة أطفأت ياسمين شمعاتها، ثم التقطت واحدة لفّتها بعناية في منديل صغير وأسكنته حقيبتها.

تناولت قطعة صغيرة من كعكتها واستأذنت لتنصرف، حاولت صديقاتها ثنيها عن المغادرة واستجدين بقاءها لوقت أطول، لكن بدا لسندريلا أن تكون في شقتها قبل منتصف الليل.

قبل أن ينتصف الليل بدقائق كانت ياسمين تجلس في شقتها، أمام طاولة صغيرة، تتوسطها كعكة شوكولا. التقطت من حقيبة يدها الشمعة التي أطفأتها في المطعم، وغرستها في منتصف الكعكة. حالما دقّت ساعة العقرب الواحد معلنة انتصاف الليل، تمتمت ياسمين بكل ما تمنّته لعامها الجديد وأضاءت الشمعة. أخذت تتمايل طرباً على نغم بعيد، وصوت عميق يقول «لا تطفئي شمعة بعد اليوم بل أضيئيها».

أخذت تراقب الشمعة بعينين تبرقان فرحاً وإحساساً عميقاً بالرضى. بعد لحظات سمعت طرقاً على بابها. استغربت زائر منتصف الليل. قبل أن تفتح الباب اتصلت بحارس البناية في الأسفل تستطلعه الأمر، فما أجابها أحد. نظرت من العين السحرية فرأت باقة ورد كبيرة. قدرت أنها مفاجأة من إحدى صديقاتها ففتحت الباب. عندما سمعت عبارة «كل عام وأنت بخير» جمدت مكانها وهي تمدّ يدها لالتقاط الباقة، وخفق قلبها بقوّة، فما كانت تتخيّل للحظة واحدة أن يكون هو.

البريد الإلكتروني للمؤلف:
nakshabandih@yahoo.com